بناة الثقافة الإسلامية

تأليف

اتش . ل . ديفرنيشر

ترجمة

محمد سعيد السيد منصور



بناة القاهرة الاسلامية

ألفته بالانجليزية

السيدة ر. ل. ديفونشير
الحائزة لنيشان الكمال

نقله إلى العربية

محمد سعيد السيد منصور
دبلوم معهد الآثار الاسلامية بمرتبة الشرف
سكرتير المتحف الحربى



الناشر و. شندلر
بالقاهرة

بشارع شريف باشا نمرة ٤١
بالقــاهرة

الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

الى مقام حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول
ملك مصر المعظم وراعي العروبة والاسلام وحاميها
نرفع هذا الكتاب ونحن فخورين بان نتوجه باسمه الكريم .

المؤلفة　　　　　　　　　　المترجم

محتـــويات الـكتاب

مقدمة الطبعة العربية

فى أغسطس سنة ١٩٢٤ م ، كانت مصر ومظاهرها المختلفة موضع دراسة صيفية فى جامعة كامبردج . وقد ألقيت فى ذلك الحين بضع محاضرات تشمل أربعة فصول من هذا الكتاب لكى تكون مقدمة لسلسلة محاضرات عن فن العمارة الإسلامية يلقيها الأستاذ كرزول K. A. C. Creswell أكبر حجة فى هذا الفن على قيد الحياة . وقد رؤى أن الإحاطة بتاريخ مشيدى الآثار الرائعة فى القاهرة مما يزيد فى روعة التأثير الذى تثيره فى نفس المشاهد لها . وقد ألقيت هذه المحاضرات بعد ذلك مرة أخرى فى القاهرة باللغة الفرنسية مع إتمام الزيادات فى الفصلين الأول والسادس ثم طبعتها فى النهاية طبعة جاءت آية فى فن الطباعة المتقن وذلك فى مطبعة Maisonneuve « ميزون نيف » فى باريس عام ١٩٢٦م وجعلت عنوانها L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses Monuments

ومن الطبيعى تعذر الحصول على هذه الطبعة فى مصر أمر طبيعى بسبب الأحوال الحاضرة . ولما كان كثير من « السياح » ذوى الثقافة والفن مضطرين فى هذه الآونة لقضاء بعض الوقت فى القاهرة فقد استحسنت طبع هذا الكتاب الصغير بالإنجليزية ليسد حاجتهم الى الإحاطة بتاريخ العصر الوسيط لهذه المدينة . وإن هذا التاريخ لقليل الذيوع إذ طغت عليه الناحية الفرعونية وحجبته. ومما يثير الدهشة والأسى أننا نجد من اهتم من المصريين بدراسة ماضى بلادهم المجيد قليل نادر ، وقد كانت مصر وسورية فى العصور الوسطى تؤلفان امبراطورية قوية لها علاقات

سياسية وتجارية ظلت قائمة مع أوروبا حتى قضى عليها الفتح التركى عام ١٥١٧م

وقد ارتأى اثنان من أصدقائى المصريين، وهما المرحوم الدكتور عبد المنعم بك رياض والبكباشى عبد الرحمن زكى، أن يكون كتاب Moslem Builders of Cairo فى متناول القراء المصريين؛ وبإشارتهما أتم الأستاذ محمد سعيد منصور تعريبه بنجاح. وإنى واثقة من أن جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول، الذى بذل الجهد فى تشجيع تقدير الآثار الإسلامية الفذة فى هذه المملكة وصيانتها كان يسره أن يرى رعاياه ممن يجهلون اللغات الأجنبية قد أصبح ميسراً لهم دراسة هذا الكتاب الذى سبق أن تعطف وقبل إهداء الطبعة الفرنسية إليه فكان مثالا ملكياً احتذاه فيه جلالة ولده الفاروق.

ولما كان هذا الكتاب قد وضع خاصة للمهتمين بآثار القاهرة الرائعة فقد تحاشيت سرد الحروب والمعاهدات وحاولت أن أعطى القراء بعض المعلومات مرتبة حسب تسلسل التاريخ عن حكام مصر من الفتح الإسلامى حتى الحملة الفرنسية وهذه المعلومات تمهيد لاغنى عنه لمن يدرس الآثار الباهرة فى مصر وسورية وهى التى تكون أهم فرع فى الفن الإسلامى.

وقد خلف لنا أحمد بن طولون ومن تبعه من أمراء أربع أسر حكمت مصر حتى الفتح العثمانى آثاراً معمارية رائعة تتناسب مع ذوقهم وعظمتهم. وإذ كان الهدف الأساسى لهؤلاء البناة هو الأشادة بذكرهم فإن جميع آثارهم عليها كتابات تزين واجهاتها بأناقة الخطوط العربية ورشاقتها وتمدنا بالكثير من المعلومات ذات القيمة. وبالاستعانة بهذه الكتابات وبدراسة كتب التاريخ العربية المعاصرة إستطاع المستشرقون الحديثون تدوين مؤلفات كاملة إلى حد كبير فى التاريخ والآثار، ومعظم المعلومات فى كتاب «بناة القاهرة الإسلامية» مستمدة من المراجع العربية مثل كتب المقريزى وابن تغرى بردى وابن إياس،

وقد اعتمدت فى دراستها على معونة أصدقائى العلماء أمثال محمود بك عكوش، والمرحوم الدكتور ماكس مايرهوف، والقاضى عثمان صبرى، وإيلى زكور، والدكتور ليون ماير، وكارل لام، وغيرهم ممن يسرّنى أن أنوه بفضلهم هنا . ويسرّنى كذلك أن أسجل شكرى لمن تفضلوا بالمعاونة فى الصور الفوتوغرافية التى يطبع معظمها هنا لأول مرة والتى تشمل آخر اكتشافات الأستاذ كرِول فى باب النصر، وعباس افندى بدر فى باب القرافة، والتابوت الجميل للشهيد الحسين الذى اكتشفه المفتش العالم حسن عبد الوهاب افندى
القاهرة فى

القاهرة فى صفر سنة ١٣٦٦هـ
مايو سنة ١٩٤٦م

هـ. ديفونشير

كلمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

كان الاهتمام بالآثار الإسلامية إلى عهد قريب، قاصراً على المستشرقين الذين وجدوا فيها جمالا لم يكن مألوفا لهم فى أوروبا إذ وجدوا فيها حلاوة وطلاوة ورشاقة استحبوها وارتاحوا إليها، فراحوا يمعنون فى دراستها جملة وتفصيلا. وتبعهم فى ذلك قلة من المصريين زاد عددها على مر الأيام وخصوصاً بعد إنشاء معهد الآثار الإسلامية بجامعة فؤاد الأول برئاسة عالم قطع نفسه لدراسة فن العمارة الإسلامية حتى أصبح فيها الحجة والمرجع فى العهد الحالى، وأعنى به أستاذنا المستر كريزول.

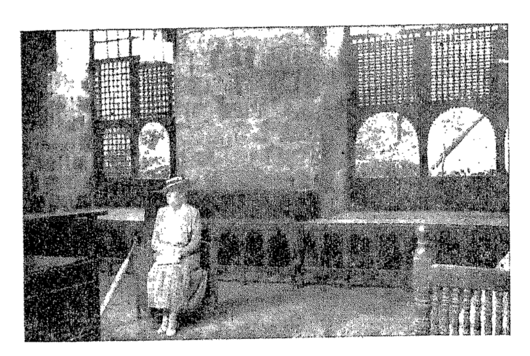
وقد بلغ من حب المستشرقين لمصر وآثارها درجة جعلت بعضهم يتخذها موطناً ثانياً يقيم فيه مثل اللواء جاير أندرسون باشا والسيدة الجليلة مسز ديفونشير التى أقامت فى مصر منذ أربعين عاما ألفت خلالها كتباً كثيرة قيمة عن نواحى الآثار الإسلامية فى مصر. وقد تفضل مولانا جلالة الملك فاروق الأول حفظه الله فأنعم عليها منذ عهد قريب بنيشان الكمال تقديراً لجهودها وتشجيعاً لها.

ولعلى لا أكون مبالغاً إذا قلت أن أهم مؤلفاتها هو الكتاب الحالى وقد طبعته طبعة فخمة رائعة باللغة الفرنسية ثم ترجمته فى طبعة أخرى إلى اللغة الإنجليزية. وقد وجد فيه البكباشى عبد الرحمن زكى (أول من ألف بالعربية عن القاهرة فى العصر الحديث) والمرحوم الدكتور عبد المنعم بك رياض، ناحية جديدة

فى عرض تاريخنا القومى والتعريف بحياة من شيدوا تلك الآثار الرائعة فاقترحا على حضرة المؤلفة تعريبه فوافقت ، وكان أن وقع الاختيار علىّ للقيام بذلك فصادف هذا الأمر منى ميلا ورغبة لسابق دراستى للآثار الإسلامية بجامعة فؤاد الأول بالمعهد السابق ذكره . وقد اجتهدت فى أن أجعل النسخة العربية محتفظة بالروح التى أرادتها المؤلفة لفظاً ومعنى . وأرجو أن يكون قد وفقنى الله الى ذلك ، فيرضى عن الكتاب كل قارىء له وهذا أقصى ما أبغى . ولا يفوتنى أن أذكر بالشكر الزميل الأستاذ إيلى زكور لما أسداه من معاونة قيمة.

القاهرة فى صفر سنة ١٣٦٦ هـ
مايو سنة ١٩٤٦ م.

محمد سعيد منصور



المؤلفة فى صحن بيت السحيمى — تصوير ايمان

بناة القاهرة الاسلامية

الفصل الأول

عمرو وابن طولون

نتزع أوغسطس مصر من يد أنطونيوس وكليوپاتره حوالى عام ٣٠ قبل لميلاد وأصبحت مصر إقليما من أقاليم الإمبراطورية الرومانيـة . وفى القرن السابع الميلادى صارت جزءا من الإمبراطورية البيزنطية السائرة نحو الانحلال البطىء منذ عهـد جستنيان . ويقال أن أهل مصر ، أى القبط ، اعتنقوا الديانة المسيحية على يد القديس مرقس ، فى القرن الأول الميلادى ، ثم صاروا

فيما بعد فريسة للخلاف الدينى المتوالى ، إذ اعتنقوا المذهب اليعقوبى الذى يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح بينما حاول الروم أن يرغموهم على اتباع المذهب الملكانى وهو مذهب البلاط .

وكانت البلاد شقية ، سيئة الإدارة يسود المزارعين الجهل ، ولكنهم كانوا بسطاء كثيرى الكدح كالفلاحين اليوم ، ولا تربطهم صلة بأهل الإسكندرية المترفين ، وكانت عصابات النوبة وقبائل البدو تعصف بمصر العليا بلا رادع يردعها . وكانت الولايات البيزنطية الأخرى فى مثل هذه الحال من الاضطراب والفوضى، فشبت نيران ثورة بزعامة ابن أحد حكام أفريقية اسمه هرقل، كاسم أبيه ، واجتهد فى الاستيلاء على الإسكندرية .

كان فوكاس الإمبراطور الجالس على العرش فظا غليظ القلب أوفد الجيوش السورية الى مصر بأمرة قائد بلغ من شدته وقسوته أنه أينما حلت جنوده استفزت شعور السكان ضد الإمبراطور ، فانضم الناس أفواجا إلى نكتاس عامل هرقل ، وقد ظل أهل الإسكندرية (الجريكو رومان) على ولائهم لبيزنطة ولكن المدينة سقطت بعد قتال قصير ، وأصبح هرقل مسيطرا على مصر ، ثم أقلع بعد ذلك إلى سلانيك حيث قوبل بالترحاب ، ومن ثم توجه صوب القسطنطينية وأفلح فى الاستيلاء عليها وتوج إمبراطورا بعد أن أعدم فوكاس .

وفى هذه الأثناء ترك نكتاس فى الإسكندرية حاكما على مصر وقد عهد هذا بالمناصب العالية إلى من عاضده من الجريكو رومان ومع ذلك فقد كان محببا لدى القبط فقد خفف الضرائب كثيرا وأظل اليعاقبة بحمايته فى نضالهم الدائم ، وقد ظلت الخلافات الدينية على شدتها السابقة وبقيت هذه الفترة قائمة كذلك حتى الغزو الفارسى عام ٦١٦ م .

كان خسرو ، شاه العجم ، حليفا للرومان إذ أعانوه على ارتقاء العرش ، ولكنه اشتبك فيما بعد فى حرب ضد فوكاس ، ثم هرقل فافتتح سورية واقتحم أورشليم عام ٦١٤ م . ففر الناس أمامه إلى مصر ، وسرعان ما ازدحمت بهم الإسكندرية وفى سنة ٦١٦ م استأنف الفرس غزوهم وفتحوا مصر وقتلوا السكان وهدموا كنائس وبيع كثيرة فى الوجه البحرى حتى صارت الأرض ملأى بأعمدة الرخام (١) .

ولكنهم لما استقر بهم الأمر ، عمدوا إلى الاعتدال فى حكمهم وبسطوا حمايتهم على القبط اليعاقبة وصارت الإسكندرية ثانية موئلا لرجال الدين والفلاسفة والعلماء والفنانين .

وفى سنة ٦٢٢ م حاول هرقل أن يعقد صلحا مع خسرو ولكنه رفض فعادت الحرب بينهما جذعة ولجأ الروم إلى عمارتهم البحرية واستعانو بها ضد الفرس ولقلة خبرة هؤلاء بها تجلى عجزهم أمامها وفى النهاية غُلب الفرس على أمرهم حوالى سنة ٦٢٧م وانسحبوا من مصر ، فعين الروم واليا جديدا عليها .

فى ذلك الحين أضاء فجر قوة جديدة وأشرق نورها ، فقد هاجر النبى محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة عام ٦٢٢م ، وكانت قوته فى ازدياد دائم ، وفى عام ٦٢٧ م بعث بكتبه إلى ملوك الأرض ، يطلبُ إليهم الدخول فى الدين الجديد ، فمزق خسرو الكتاب وهو مغيظ محنق ، وأما هرقل فكان فى شغل عنه فلم يلق إليه بالا . ولكن حاكم مصر (وهو غير المقوقس)

---

(١) استعملت أعمدة الرخام فى بناء كثير من المساجد ولم تكن هناك حاجة لهدم الكنائس للحصول عليها وخاصة فى أيام الاسلام الأولى فقد كان من السهل الحصول على المواد اللازمة من الخرائب التى تركها الفرس .

رد رداً رقيقاً وأرسل هدايا هى حمار ، وبغل ، وكأس من البللور : وجاريتين جميلتين اعتنقت إحداهما المدعوة مريم الدين الاسلامى وولدت للنبى ابنه إبراهيم وقد مات طفلا .

مات محمد صلى الله عليه وسلم عام ٦٣٢ م بعد أن وحّد جميع بلاد العرب، وتلاه أبو بكر أول الخلفاء ثم خلفه عمر وامتد الفتح الإسلامى فى سورية وحوصرت أورشليم ثم سقطت عام ٦٣٧ م .

وحينما أخلى الفرس مصر عام ٦٢٧ م عين هرقل لبطريركية الإسكندرية سيروس،وهو أحد مطارنة مدن القوقاز والبعض يقول أنه لهذا السبب سمى بالمقوقس،وقد كان قساً ملكانياً ضيق العقل لايحتمل ، عمد إلى تعذيب الأقباط اليعاقبة وجعلهم زاهدين فى حكومة الروم . فلما عين والياً على مصر جمع بين السلطة المدنية والسلطة الدينية وكانت الحامية تحت سلطانه . وقد حاول إجبار الأهالى على إقرار قرارات مجمع خلقدونية (١) وقتل خلقاً كثيراً ممن قاوموه ، وكان مارمينا أحد شهداء هذا العهد . وإن تماسك الكنيسة القبطية أمام هذا الاضطهاد لجدير بالإعجاب الكبير .

بعد أن بسط المسلمون سلطانهم على سورية وفلسطين ،مدوا أبصارهم إلى مصر ، وكان عمرّ قد عين عمرو بن العاص قائداً للجند،فأخذ هذا يحث الخليفة ليسمح له بفتح مصر وفاز بموافقته ولكنه لم يكد يبدأ حتى غير عمر رأيه ورغب فى استدعائه وأرسل خلفه رسولا بكتاب يأمره فيه بالنكوص إن لم

---

(٢) عقد هذا المجمع عام ٤٥١ م وانكر مبدأ يوتيخا الذى يجعل للمسيح عيسى طبيعة واحدة بدل اثنين ، إذ الطبيعة الالهية تستوعب الطبيعة البشرية ، كما يستوعب المحيط قطرة الماء .

يكن قد دخل أرض مصر؛ لحدس عمرو ما يحويه الكتاب وتحاشى أن يفضه حتى جاوز حدود العريش وعلى هذا والى سيره .

وبعد استيلاء عمرو على مدينة بلسيزيوم القديمة أو الفرما ، وكانت غير حصينة ،وصل إلى مكان على النيل يدعى تندنياس (أم دنين) ربما كان موضعها الآن فندق شبرد، ومع أنه لقى بعض المقاومة إلا أنه نجح فى الاستيلاء عليها وأخذ بضعة قوارب على ضفة النيل ليعبر عليها النهر إلى ممفيس فى مواجهة مصر جنوب باب اللون . وبعد حملة غير حاسمة فى المنطقة الواقعة غرب النيل ، سمع عمرو بأن جيشاً آخر أمده به عمر قد وصل إلى هليوپوليس، فعبر النيل ثانية والتقى بالقادمين فى عين شمس ووصلت جيوش الروم فى ذلك الحين واشتبك الفريقان فى معركة حامية الوطيس انتهت بفوز العرب فوزا مبينا،والتجأ من بقى من الروم ومعهم المقوقس إلى حصن قصر الشمع ، على الشاطىء الشرقى للنيل .

ويظهر أن هذا الحصن القديم أنشأه تراجان فى نهاية القرن الأول الميلادى ، وتشمل قطعة الأرض التى كان يشغلها عدداً من الكنائس القبطية منها المعلقة المشيدة على قمة برج عظيم ، ولا يزال باقياً من الحصن أجزاء مهمة منها برجان أو ثلاثة وبوابة كان النيل ينساب أمامها ولكنه انحسر اليوم إلى مسافة كبيرة نحو الغرب . أما فى تلك الأوقات فكان يملأ خندقاً يحيط بالحصن وربما كان فى داخله المقياس الأول للنيل وكان يطلق عليه اسم باب اللون أو بابليون . ونجد فى العصور الوسطى الصليبيون وغيرهم يذكرون «سلطان بابليون Soldan of Babiloinne» .

ألقى عمرو الحصار على الحصن وضرب معسكراً حوله ثم عبر النيل مرة أخرى وأخضع لسلطانه جميع مقاطعة الفيوم .

واستأنف المقوقس داخل الحصن تعذب الأقباط الذين رفضوا اعتناق المذهب الملكانى ، حتى أصبح جميع من بالحصن على المذاهب بفضل الضغط والإرهاب وألقى بالقليل الذى ثبت فى سجون الحصن . وبعد ذلك أرسل المقوقس الرسل لمفاوضة العرب فرجعوا مأخوذين ببساطة هؤلاء القوم الصحراويين وهدوئهم وقالوا: «رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ؛ جلوسهم على التراب وأكلهم على ظهور خيلهم (كذا) وأميرهم كواحد منهم ، مايعرف رفيعهم من وضيعهم ، لهم أوقات معلومة لصلواتهم يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم (١) » .

وقد خير عمرو الرسل بين خصلة من ثلاث ، ١ — الإسلام ، ٢ — أو الجزية ، ٣ — أو القتال ولكن المقوقس أمل فى شروط أكثر سخاء فأرسل إلى عمرو أن يوفد رسله إلى الحصن ليفاوضوه فأرسل عمرو إليه «عبيدة» (٢) وكان أسود عظيم الهامة ، فريع البطريق وأبى أن يتفاوض معه ولكنهم ذكروه بأن الناس أمام الله سواسية .

وانتهى المقوقس إلى قبول شرط الجزية ، ولكن الحامية الرومية أبت

---

(١) نقلت المؤلفة هذا النص عن بتلر فى كتابة The Arab Conquest of Egypt. والمعروف أن لبتلر بعض الاخطاء فى هذا الكتاب ومنها هذا النص . وقد أورده الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه «عمرو بن العاص» كالآتى. (رأينا قوما ،الموت أحب إليهم من الحياة والموت أحب إليهم من الرفعة ؛ ليس لأحد فى الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، مايعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، إذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم) المترجم .

(٢) تقصد المؤلفة عبادة بن الصامت . المترجم .

وخرجت لقتال العرب فى معركة كتب النصر فيها للعرب. وعرض عمرو نفس الشروط مرة أخرى؛ فأرسلها المقوقس فى كتاب إلى الإمبراطور فغضب هذا وأرسل المدد للحامية ولـكن العرب أوقعوا بهم الهزيمة واستولوا على الحصن عنوة . وتركت الحامية الرومية تغادر الحصن فى سـلام ولـكن هؤلاء، قبل مغادرتهم الحصن ، صبوا جام غضبهم على القبط التعساء الذين فضلوا السجن على تغيير عقيدتهم. فقطعوا أيديهم بشكل شنيع .

فرض عمرو الجزية على سكان مصر ولـكنه لم يقس فى معاملتهم، ومن اعتنق منهم الإسلام عومل معاملة الأخ فى الدين كسابق وعده أعفاه من الضريبة . ثم رغب فى فتح الإسكندرية فأمر برفع المعسكر ولكنهم أبقوا فسطاطه؛ وهناك قصة شائعة قد تكون حقيقية وهى أنه لم يشأ إزعاج حمامة اتخذت عشها فى أعلاه .

وفى طريقه إلى الإسكندرية استولى على مدينة نقيوس وقتل أهلها ولم يفلح فى الاستيلاء على الإسكندرية فقفل راجعاً إلى بابليون بعد ضياع مجهود سنة .

كان هرقل قد مات قبل سقوط بابليون فلما خلفه ابنه قسطنطين استدعى المقوقس من المـكان الذى نفى فيه بعد تسليم الحصن، وأرجعه إلى الإسكندرية فأثار النزاع الدينى مرة أخرى واضطهد الأقباط . وقد ذهب سراً للقاء عمرو فى باب اللون وعرض عليه المفاوضة فى تسليم الإسكندرية فرحب عمرو بذلك طبعا وعرض شروطا سخية وهى : أن تبحر حامية الإسكندرية حاملة معها كل ماتملك من مال ومتاع، وأن لا يتعرض أحد للمسيحيين أو اليهود بسوء ، وأن تبقى الـكنائس لا تمس ، وأن يدفع غير المسلم الجزية . وقد سخط أهل الإسكندرية لما علموا بخيانة المقوقس، ويقال أنه مات نادماً بعد ذلك بقليل .

وقد أثار جمال عمارة الإسكندرية دهشة الفاتحين وإعجابهم ومن المؤسف حقاً أن نقرأ وصفها ونجد أنه لم يبق شيء منها فعلا ، فنقرأ أنه قد شاع فيها استعمال الرخام الناصع، فى البلاط والحوائط وتميزت الشوارع الرئيسية بأعمدة باسقة جميلة وكانت الكنائس هى المعابد الوثنية القديمة ، وخزنوا المياه فى خزانات رائعة تحمل سقفها مائة من الأعمدة . وكانت المنارة الشهيرة قائمة مكان حصن قايتباى وتعد إحدى عجائب الدنيا، ولقد دمر بعضها بدسيسة من الأعداء زمن الخليفة الوليد ثم أجهزت عليها الزلازل فيما بعد . ويعدها بتلر وبعض المؤرخين الأصل الذى نشأت عنه مآذن القاهرة ذلك لأنهم لم يلحظوا أن هذه الأخيرة إنما عملت على غرار أبراج الأجراس فى الكنائس السورية فضلا عن أن المأذنة التى يقولون أنها نشأت على غرار المنارة لم تظهر فى مصر أو غيرها إلا بعد تهدم المنارة بزمن طويل .

وهناك أقصوصة أخرى عن إحراق العرب لمكتبة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر لم يورد ذكرها أحد من قدماء المؤرخين ؛ بل ولم يثبت أن المكتبة كانت موجودة فى ذلك الحين .

وقد أتم عمرو فتح مصر عند ما اكتسح الدلتا واحتل المسلمون دمياط وتنيس ورشيد وبعض مدن أخرى . فرجع بعد ذلك إلى جنوب باب اللون حيث كان معسكراً وترك فسطاطه قائماً وبنى هناك مدينة الفسطاط . وشيد أول جامع فى مصر من بناء بسيط متقارب الأبعاد عرشه من جذوع النخل والجامع الحالى القائم مكانه أكبر من الأصل بما يزيد عن ثلاث مرات .

أصبح عمرو والياً على مصر وكأمر الخليفة عمر جعل عاصمته الفسطاط وأحسن معاملة القبط واستدعى بطريقهم المحبوب منهم بنيامين وتركهم

يباشرون عبادتهم التى طال اضطهاد الروم الملكانيين لها ، ومع ذلك فقد أبى عمرو السماح لليعاقبة باضطهاد الملكانيين وأظل الجميع بحمايته. وقد عمد بعض الولاة فيما بعد الى اتخاذ بعض تدابير للحط من شأن اليهود والمسيحيين، ولكن زمن عمرو كانت تحسن معاملة الجميع ،وأصبح الإقليم زاهياً زاهراً .

ولما كانت جزية الرؤوس تجبى من غير المسلمين فقد دخل الإسلام جمع وفير وتبع ذلك نقص الجزية فاستاء عمر واستدعى عمروا وولى آخر بدله .

وفى عام ٦٤٥م هاجم الروم الإسكندرية بحرا واستولوا عليها ولكن عمرواً أعيد وعهد إليه بقيادة الجند فهزمهم مرة أخرى وفى هذه المرة هدم الأسوار ولكنه لم يعد ثانية والياً على مصر فإن الخليفة عثمان الذى خلف عمر فضل عليه عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، الذى لم يجد حرجاً فى زيادة ما يجبيه من السكان ، وعرضت على عمرو قيادة الجند فقط ولكنه أبى وأجاب بأن معنى ذلك ، أن يمسك قرون البقرة ليحلبها غيره (١)وعلى كل فقد عين والياً عليها مرة ثانية عام ٦٥٨م زمن الخليفة معاوية . وقد دبرت مؤامرة لاغتيال حياته عند دخوله المسجد وحدث أن مرض فى اليوم المحدد فأناب عنه موظفا (قاضى مصر) المسمى خارجة بن حذافه ليحل مكانه فطعن القاتل هذا الأخير، ولما أحضروه أمام الوالى كان من الجرأة بحيث صاح « والله لقد أردتك أنت » فأجابه عمرو « ولكن الله أراد خارجة » .

وقد توفى عمرو فى سلام عام ٦٦٣ م ، ويروى أنه دفن فى سفح المقطم ولكن كل الآثار التى تدل على مكان قبره قد زالت .

جاء بعد عمرو سلسلة من الولاة حكموا مصر بتفويض من الخلفاء المعاصرين

---

(١) « أنا إذا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها » . المترجم .

لهم ولكننا لا نجد منهم من يستحق ذكر اسمه إلا الوالى التاسع والتسعين وهو أحمد بن طولون . وخلال هذه الحقبة المديدة توافدت على مصر قبائل عربية عديدة واتخذتها وطناً وغيرت عادات الأهالى إلى حد كبير . وحدثت تغيرات كذلك فى الخلافة فإن الخليفة الراشد الرابع خلفتــه الدولة الأموية (١) ثم حلت محلها العباسية . ففى عام ٦٦١ م مات على زوج ابنــة النبي ووالد سبطيه الحسن والحسين ، فانقسم المسلمون إلى حزبين حزب يعضد الحسن والحسين والآخر فى جانب معاوية . وقام الحسين عقب وفاة معاوية يناهض خليفته يزيد ولـكنه استشهد فى معركة كربلاء .

وقد بقى على كل حال عدد كبير من المسلمين موالياً لسلالة الرســول وقد اعتبرهم الآخرون كفرة ويطلق عليهم اسم الشيعــة (من تشيع له أى تحزب واتبع) وتسمى أضدادهم بالسنيين نسبة إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم .

وفى عام ٦٦٨م نجد أن مصر قد أصبحت أخيراً تحت سيطرة حاكم حقيقى هو أحمد ابن طولون . كان أبوه طولون أحد الأتراك المماليـك الذين كون الخلفاء منهم حرساً خاصاً لهم ، وقد وصل إلى مرتبة عاليــة فى بلاط بغداد ، التى تأسست عام ٧٦٢م لتكون عاصمة للعباسيين . وقد تلقى أحمد تربية خاصة وبعض التدريب العسكرى فى مدرسة الجيش بسامرا فى الجزيرة . وبعد وفاة طولون ، تزوجت والدة أحمد من أمير آخر عين حاكما على مصر، فرغب هذا عن الذهاب إلى الفسطاط وندب ابن زوجه ليحل محله .

وفى زمن وجيز استطاع احمد أن يوطد سلطانه فى عاصمة القطر . ولما

---

(١) بعد مقتل على ، الخليفة الرابع ، بايع الناس ابنه الحسن بالخلافة ولـكن لم تتم له البيعة فى جميــع الأقطــار الاسلامية ، وقد آثر أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية . المترجم

قُتل زوج أمه فى دسائس البلاط ، حل محله حماه الذى ألقى إليه مقاليد أمور مصر جميعها ؛ وسرعان ما أصبح صاحب السلطان المطلق فى جميع الإقليم وضمن رضاء الخلافة عنه بإرساله المال الجزيل . وفى هذه الآثناء قام بإنشاء تلك الآثار التى خلدت ذكره .

وكان قد أنزل جيشه وموظفيه فى ضاحية شمال شرقى الفسطاط سميت بالقطائع لأنها كانت مجزأة إلى أقسام أو قطائع ؛ وأصبحت الحالة ماسة إلى جامع كبير يسع الجند فشيد ذلك الأثر الفخم الذى لا يزال قائماً بفضل الأرض الصخرية المؤسس عليها . ولقد حاز هذا الجامع بحق إعجاب جميع المؤرخين الذين كتبوا عنه منذ تأسيسه ولا عجب إذن إذا اقترن تاريخه بالأقاصيص. وفى الواقع يمتاز هذا الجامع بأن بناءه ملهم من جامع سامرا ولا شك أن أحمد بن طولون رآه فى صدر شبابه وعرفه حق المعرفة وأعجب به (١).

ويقال أن المهندس (٢) الذى بناه هو نفسه الذى بنى قبل ذلك بزمن وجيز قناطر المياه التى حملت الماء من نبع فى البادية الى قصر الأمير . ولا تزال أجزاء هامة من هذه القناطر يمكن مشاهدتها بين مقبرة الإمام

---

(١) شيد الخليفة الواثق بن المعتصم هذا الجامع وهو الآن مخرب . وبدراسة أطلاله أمكن الاستدلال على أن تخطيط جامع الواثق يكاد تطابق تخطيط جامع ابن طولون . وزيادة على ذلك فإن مواد البناء فى كليهما واحدة ولا يوجد فى الجزيرة مقالع للحجر مثل تلك الموجودة بالمقطم وعلى ذلك فإن استعمال الآجر لا محيص عنه وقد شيد احمد بن طولون جامعه بالآجر مع تيسر الحصول على الحجر .

(٢) تناقل قدماء المؤرخين قصة هى أن المهندس القبطى الذى سبق للوالى سجنه قد تعهد ببناء المسجد بغير أعمدة فى حين أن أحد الأغريق طلب ثلثمائة عمود تؤخذ من الكنائس ولكن نظرية بناء المسجد على طراز مسجد سامراً أقرب للحقيقة .

الشافعى وبلدة البساتين . ويلاحـظ أن عقود تلك القناطر وكذلك الجامع مدبية وذلك قبل نشأة الكنائس القوطية بمائتى سنة ، وليست هذهى الأولى، فإن مقياس النيـل فى جزيرة الروضة كان قد أعيد بناءه بشـكله الحالى عام ٨٦١ م وجميـع القرائن تؤيد أن العقد المدبب الموجود هنالك يرجع إلى ذلك التاريخ .

كان حكم ابن طولون قوياً وعادلا وكان يعيش معيشة الملوك؛ يشجع الفنانين والعلماء ويشملهم بحمايته ، وأسس مستشفى للمرضى ، وضم سورية إلى حكمه وضرب النقود باسمه . وثارت عداوة بينه وبين الموفق أخى الخليفـة الذى حاول عبثاً إثارة القلاقل ضده وقد قام بأحداها ابن الوالى ذاته . ولما توفى ابن طولون عام ٨٨٤ م خلفه خمارويه ابنه الثانى وكانت هذه أول مرة تصبح فيها ولاية مصر وراثية .

بنى خمـارويه الكثير من القصور لم يبق منها شىء إلا ما يصفها به المؤرخون من إسراف وبذخ . ولما كان مصاباً بالأرق فقد عمد إلى علاجه بعمل حشيه من أدم تملأ بالهواء فتطفو على بركة من الزئبق ومثبتة فى الحافة بأطناب من حرير ؛ وقد تأكدت هذه القصة الغريبة باكتشاف بقايا الزئبق فى مكان القصر . ثم قتل خمارويه غيلة ، وكان أولاده صغاراً لا يقدرون على الاضطلاع بشئون الحكم ، وتلت ذلك حقبة من الفتن والاضطرابات فتداخل الخليفة حينذاك وأرسل جيشـاً قضى على جنود الطولونيين السودان ، وهدم القصور والديار حتى لم يبق شىء من القطائع غير المسجد الجامع فلم يمسوه لحسن الحظ وحمل من بقى من الطولونيين أسرى ، وعين لمصر وال جديد .

الفصل الثـانى

الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم العظام

بعد سقوط الدولة الطولونية عام ٩٠٥ م استعاد الخلفاء العباسيون السلطة التى كانت لهم قبل عهد ابن طولون،أى أنهم أرسلوا الولاة من لدنهم إلى مصر لحكمها . وكانوا فى العادةمن ذوى قرباهم أو من المقربين إليهم وفى الغالب لم يكونوا أكفاء ، لا هم لهم إلا اكتناز المال على حساب الشعب المضطهد .

وعلى هذا المنوال تولى الحكم أربعة عشر أوخمسة عشر وال بسرعة حتى جاء أحدهم وأظهر كفاءة فى الحكم ، وهو الأخشيد المنحدر من سلالة أمراء فرغانة وقد وجد البلاد فى حالة فوضى واضطراب،فالجند تتحدى سلطة الوالى، والخراج تنتقصه أيدى متداوليه . فاستطاع فى سنوات قليلة أن يعيد الأمن والنظام إلى نصابها بل واستطاع أن يستعيد ولاية سورية التى اقتطعت من مصر .

وفى هذه الأثناء ، فى شمال إفريقية بالمغرب ، فى الأقطار المعروفة الآن باسم تونس ومراكش، قامت أسرة شيعية ادعى أفرادها انحدارها من سلالة فاطمة ابنة الرسول عليه السلام، ولذلك تلقبوا بالفاطميين ، وفى عام ٩٠٩م أفلحوا فى القضاء على الأغالبه أصحاب تونس ووطدوا أقدامهم فى بلاد البربر واتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة وسرعان ما توالت حملاتهم براً وبحراً على مصر لاحتلالها .

وقد نجح الأخشيد فى إبعادهم ، وكذلك قضى بين جنوده على الاضطرابات

والثورات التى أضعفت مصر أمام الغزوات الخارجية . وقد طمع أن يثبت ولاية مصر فى ذريته كما فعل ابن طولون من قبل ،ولكن عند وفاته عام ٩٤٦م كان أولاده أحداثاً لا يستطيعون مباشرة الحكم بأنفسهم ، فكانت السلطة الفعلية (إن لم تكن الأسمية) فى يد عبد أسود اسمه كافور، وهو إسم لمادة لونها أكثر الأشياء بياضاً فى إقليم لايعرف الثلج ،ويطلق على السود من باب الفكاهة. وعقب وفاة كافور عادت البلاد مرة أخرى لحالة الفوضى والاضطراب ، وكان الخليفة الفاطمى فى المغرب يتربص الفرص .

وكانت عقيدة الفاطميين ،مثل عقيدة الشيعيين ، مشوبة بالتصوف الفارسى حيث نشأت العقيدة ، وكانوا يعتقدون فى التنجيم مثل المزديين الذين سبقوهم فى مرتفعات أيران . وكان المعز نفسه ، رابع الخلفاء الفاطميين فى القيروان ، فلكيا بارعا تفوق على من سبقه فى العلم والمعرفة ؛ وقد اعتقد أن عام ٩٦٩م طالع يمن للفتح والقضاء على حكومة مصر السنيّة المذهب . وتلك كانت أمنية فى قرارة نفسه . وقد أمده بالمعلومات جملة وتفصيلا ، يعقوب بن كلس الذى كان فى خدمة كافور ، فلما أسيئت معاملته إساءة بالغة قرّ فى نفسه أن من صالح البلد أن تكون تحت حكومة أقل فساداً .

ولم يكن الأخشيديون يعاملون أهل مصر بطريقة تضمن إخلاصهم ، ولذا ألجأت سلالة الرسول إلى شعورهم الدينى تستهويه ، فلما جاء جوهر قائد المعز ، ويلقبونه خطأ الصقلى (١) مع أنه من الصقالبة ، وجد مقاومة لا تكاد تذكر .

---

(١) يظهر أن تشابه الرسم بين كلمة الصقلبى والصقلى هو الذى نشأ عنه هذا التحريف . «المترجم»

وبعد أن حضر بجيشه الكبير المكون من مائة ألف فارس إلى الفسطاط عاصمة مصر ، أقام معسكره فى سهل شمالى المدينة وبدأ فى الحال باقامة بناء حصين أعد ليحوى قصور الخليفة وثكنات الجند واسطبلات الخيل ودور الحكومة. وظلت الفسطاط كما كانت المركز الأساسى للتجارة والصناعة .

واتباعاً للتعليمات الفكرية التى أصدرها الخليفة ، عنى جوهر عناية خاصة باختيار طالع موافق ليبدأ البناء ، فحدد التخطيط بحبال تتدلى منها أجراس مثبتة على أعمدة فى مساحات معلومة، ووقف المنجمون الى ناحية يراقبون السماء متأهبين لأعطاء شارة بدء العمل حول الحبال عند ما يطلع النجم الموافق . ولكن هذه الطريقة البارعة لم تفلح فإن غراباً كبيراً حط على الحبال فتحركت الأجراس وبدأ العمال فى حفر الأساس قبل أن تحين اللحظة الموافقة (١) .

وقد جهد الخليفة ومنجموه فى الإفادة من هذه الحادثة قدر الطاقة وفى النهاية أطلقوا على المدينة اسم القاهرة ، نسبة الى الكوكب (القاهر — مارس) الذى كان فى الطالع المستقيم إذ ذاك . وقد تمت قصور الخليفة عام ٩٧١م أى بعد ثلاث سنين . فجاء المعز حاملا معه الأموال التى لاحصر لها — وأوانى الذهب والفضة والجواهر الكريمة والخيل المسومة وطرائف الألطاف والكتب والمنسوجات الثمينة والأطرزة . ولكى يؤكد رغبته فى اتخاذ القاهرة حاضرة للملك فى أسرته ، أحضر معه جثث أسلافه ، فدفنت فى احتفال مهيب داخل القاهرة . والأزهر من أهم المبانى بالقاهرة ، بناه جوهر ليكون جامعاً للمدينة،

---

(١) هذه القصة التى نقلها عن مؤرخى العرب اكتشف مؤخراً أنها قيلت فى تأسيس الأسكندرية وعلى كل حال فأنه من المحتمل كثيراً أن الترتيبات الفلكية قد اتخذت لبناء المدينة الجديدة ساعة موافقة .

وفى خلال حكم الخليفة التالى ، تحول الأزهر إلى جامعة دينية قدر لها أن تظل قروناً عديدة رأساً للمعاهد الإسلامية ، ولا يزال كذلك حتى الآن يؤمه الطلاب من جميع أنحاء العالم .

وقد تم هذا التحول بإشارة يعقوب بن كلس ، اليهودى الذى أسلم وكانت له يد فى استيلاء الفاطميين على مصر ، وصار الآن الوزير والمشير للخليفة المعز ثم من بعده لابنه العزيز الذى خلفه عام ٩٧٥ م . وقد اغتنى يعقوب وارتفعت منزلته ، ويظهر أنه كان سياسياً قادراً حصيف الرأى . وقد عم الرخاء بلاد مصر زمن خلافة المعز القصيرة الأمد ثم طوال حكم ابنه .

كان العزيز نفسه حاكماً قديراً منزهاً عن نقائص عصره وقسوته . وكان تسامحه ، بل محاباته ، لليهود والمسيحيين العيب الوحيد الذى أخذه عليه رعاياه المسلمون ، وقد تزوج بإحدى المسيحيات وبفضل سلطانه رفع أخويها إلى أرقى المناصب الممكنة للمسيحيين ، فأصبح أحدهما البطريق الملكانى فى القدس والآخر فى أنطاكية ؛ وقد ولدت له اثنين ، أميرة يظهر أنها كانت متفوقة فى الدهاء ، وابناً تولى الخلافة بعده . ومن العجيب أن هذا الصبى الذى وصلته أنباء الخلافة وهو فوق شجرة تين وله من العمر إحدى عشر سنة ، أصبح من أقسى الوحوش فى شكل آدمى ، الذين جلسوا على العروش إطلاقاً ، ولاريب فى أنه كان مجنوناً .

وكان هو المدبر لاغتيال الوزير برجوان ، وهو صقلي كجوهر ، تولى الحكم وصياً عليه أثناء صغره ، وقتل كذلك عدة ممن خلفوا برجوان حتى لم يعد أحد يجسر على قبول منصب الوزارة . ثم اضطهد المسيحيين ، وأجبر رعاياه على قلب الليل نهاراً وأداء الأعمال كلها ليلا ، وألزم النساء دورهن وعاقب من أمدهن بأحذية الخروج ، وأمر بقتل الكلاب وتلهى بقتل الأطفال وتقطيع

أجسامهم إربا بيديه ، وهناك قصة مروعة عن القائد المظفر «الفضل» الذى وفد على القصر ليرفع خبر هزيمة أحد المتمين إلى الأمويين الثائرين على مولاه فأدخلوه على غير انتظار فى حضرة الخليفة بينما كان الأخير منهمكا فى تقطيع جثمان طفل جميل ، فلم يستطع القائد إخفاء رعبه من المشهد المخيف ، وأدرك أنه لا محـــالة هالك ، فأسرع إلى داره يعـد وصيته ، وهناك أدركه جلاد الخليفة وقطع رأسه لـكى يضمن صمته فالموتى لايتكلمون :

وقد ظن الناس ، ولا شك أن ذلك أكيد ، أن الحاكم كان يمارس السحر الأسود ، والتضحية بالأطفال من مراسيمه اللازمة . ومن الجلى أن اختلال عقله قد تحول إلى ناحية التصوف، فأخذ يجول فى الجبال وحيداً ليتصل بالمولى عز وجل كما ادعى . وعندما سيطر عليـه شخص يدعى دراز ، وهو مؤسس مذهب الدروز فى لبنان ، أخـذ يصدر تعاليم وفتاوى تتنـــافى مع القرآن ناسـيا بذلك مـكانتـه كخليفة للمسلمين وأنه نفسه قد فرغ للتو من إكمال مسجد رائع جـداً أسسه والده ، إلى جانب اثنين آخرين لم يبق منهما شىء .

ومن الجلى أن مسجد الحاكم به تأثير كبير من جامع ابن طولون وهو مساو له فى الابعاد وله معالم تستحق الاهتمام ولـكنه للأسف متهدم وتحتل فناءه أبنية حديثة قبيحة المنظر لا ذوق فيها . وأخيراً أغتيل الحاكم فى الجبل بشكل غامض، فقد عثر على جثة حماره الميت ورداء كثير الألوان كان يرتديه وجـد ملطخا بالدم ، ولـكن لم يوجد لجثته أثر . وقـد قيل لى أن الدروز يعتقدون بأنه لم يقتـل ولـكنه رفع إلى السماء وسيرجع من ثم فى آخر الزمان ، ولـكنى لا أتحمل تبعة هذا القول ، فإنه من المعلوم أن عقائد الدروز سرية لا يعلمها

أحد . ومن الراجح أن مصرع الحاكم كان نتيجة مؤامرة دبرها له رعاياه الحانقون عليه وحتى أخته شاركت فيها دفاعاً عن نفسها .

وقد تولت الوصاية فى الحكم أثناء قصر ابن الحاكم الذى تولى بعده باسم الخليفة الظاهر،وقد كان بريئا من صفات اختلال التفكير والقسوه التى اتصف بهما والده ، ومع ذلك فقد قيل أنه دعا ألفين من الفتيات الصغيرات إلى مأدبة ثم أقام عليهن بناء داخل مسجد وتركهن هناك يهلكن جوعاً ، إذ لم تفتح أبواب المسجد إلا بعد ستة أشهر .

وقد تزوج من أمة سوداء اشتراها من تاجر يهودى ، فلما مات الظاهر وهو صغير تولت هذه الزنجية الحكم وصية على ولدها القاصر المستنصر ، وكان مشيرها ذلك اليهودى الذى تدين له بمنزلتها . وكان أول أعمالها هو إحاطتها بجيش قوى من الزنوج ، فزادت بذلك كثيرا عدد البربرو السودان اللذين كانا يؤلفان جزءا من الجيش الفاطمى الأول . وكانت الخصومة القائمة بين هذه الفرق والأتراك الذين جلبهم العزيز ، ثانى الخلفاء الفاطميين فى مصر ، سببا فى الكوارث التى دمرت حكم المستنصر الطويل الأمد .

وبالرغم من أن المستنصر بن الظاهر قد بدأ حكمه فى أحوال مواتية وورث مملكة ادهشت الرحالة بغناها المفرط وحضارتها الزاهرة ، الا أن غباء والدته وضعفه هو نفسه جعلا طائفة الوزراء تبدد أموال الدولة ، وحل قحط مريع جعل أكل لحم البشر شيئا عادياً ، فكانت الناس تخطف من الطرق وتذبح وتؤكل فى المنازل ، ثم عقب ذلك طاعون وبىء وزاد الطين بلة ذلك التطاحن بين جنود الترك والسودان مما كاد يقضى على حكم الفاطميين نهائيا .

وبدأت الامبراطورية الشاسعة التى أسسها المعز تتفكك وتحلل ، فسقطت

صقلية فى يد الأمير النورمندى ، الكونت روجر الأول ، وكان الفاطميون قد انتزعوا هذه الجزيرة فيما سبق من الأغالبة .

وفى عام ١٠٦٥م استولى أتسيز التركمانى على بيت المقدس وطبريه فرجعت هى وكثير من المدن السورية الى الحكم السنى ودانت للخلافة العباسية فى بغداد . كان هذا الإنقسام فى قلب الإسلام عاملا قويا فى توجيه التاريخ إذ سهل بعد ذلك بسنين قلائل نجاح الحروب الصليبية الأولى .

لم يكتف الجند الترك والسودان بقتالهم مع بعضهم ، بل أرهقوا بيت المال بمطالب فادحة . ولما انتصر الترك فى النهاية عمدوا الى النهب والتخريب . وكان من جملة الاشياء التى دمروها بحماقتهم المكتبة الضخمة التى جمعها الخلفاء خرقوا مصاحف لا تقوم بثمن ، واتخذوا الجلود الثمينة لخصف نعالهم وحينما أعياهم الأجهاز عليها عمدوا إلى ما تبقى من الكتب فجعلوها كوما وغطوها بالرمل فتكون منها تل صناعى عرف فى القرون التالية باسم تل الكتب وذلك بجوار بلدة أبيار .

ولم يعد شىء فى النهاية يعادل الفقر المدقع الذى صار اليه الخليفة إلا الثروة الطائلة التى كان قد خلفها له والده مضافاً إليها ما ورثه عن عمتين له وهما بنتان للمعز طال عمرهما اكثر من عمر من تطلعوا الى وراثتهما بفارغ الصبر . وسرد هذه الكنوز وتعديدها يشبه أحاديث الخرافة ومع ذلك فإننا نجد الخليفة بعد بضع سنين يرتدى ملابس خلقة رثة ويجلس على حصير بال ، ولم يبق معه إلا ثلاث عبيد قد طعنوا فى السن .

عمد الخليفة فى يأسه إلى الاتصال سرا بأحد حكامه السوريين الباقين على الولاء له وهو بدر الجمالى ، وكان محنكا وحاكما قديرا ، فعرض عليه القوة المطلقة وجميع أنواع السلطة .

ولم يشترط بدر إلا شرطا واحداً وهو إحضار جيشه المكون من الجنود السورية والأرمن المدربين فقد كان على بينة من انعـدام النظام بين جنود الخليفة الأتراك والسودان وكان مجيئه سريعاً جدا فقـد قرر الإقلاع توّا فى البحر وسط الشتاء، وأصاب ريحاً موافقة . وعنى حال وصوله باقتناص رؤساء الترك الذين لم تخالجهم ريبة فيه وجهلوا أن الخليفة أرسل إليه خصيصاً للحضور فأجهز عليهم ضباطه جملة . وقد أعدم كثيراً منهم فيما بعد بالطرق المعتادة وأوقع الهزيمة بالثوار فى الأقاليم وخاصة فى الصعيد فاستتب الأمن ثانية وازدهرت الزراعة والتجارة . وارتاح الخليفة الكسول الى ترك الأدارة بكاملها بين يدى منقذة الأريب . ولما حل السلام بالأقاليم ازدهرت البلاد وزاد الخراج فاستطاع بدر أن ينفق بعض المال فى بناء المساجد وتعميرها وأنفق بنوع خاص على تحصين القاهرة ، وبدلا من سور جوهر المتخذ من اللبن البسيط بنى حائطاً من التحصينات الفخمة لا يزال جزء رائع منه باقياً بين باب النصر وباب الفتوح محيطاً بجامع الحاكم الذى أقيم فى الأصل خارج الأسوار القديمة . ومات بدر فى عنفوان نشاطه عام ١٠٩٤م بالغاً من العمر ثمانين عاما وتبعه الخليفة بعد أيام قلائل .

وكانت آخر أعمال المستنصر أن عين شاهنشاه الملقب بالأفضل، ابن وزيره الأمين ، فى المنصب السامى الذى كان يشغله والده ، وعهد بالخلافة إلى المستعلى ، أصغر أولاده ، متخطياً بذلك ولده الأمير نزار ، وقد اتخذ الأفضل التدابير المؤقتة التى تكفل نفاذ ما أمر به الخليفة الراحل . ولما وجد أن طرق إدارة الحكومة التى اتخذها والده سائرة بنظام ودقة وجه نشاطه إلى السياسة الخارجية ، فنجح فى استرجاع القدس من التركمان وكذلك الجزء الأكبر من فلسطين وخيل للناس أن الأيام العظيمة للمعز والعزيز قد عادت

ثانية . ولـــكن ظهر في هذه الأثناء خطر جديد آت من الغرب اذ بدأت الحروب الصليبية الأولى .

ولا يلزمنا هنا تفصيل أسباب الحروب الصليبية ، وسنكتفى فقط بما يخص مصر مباشرة . ويكفى أن نقول أن العداوة التى شبت أخيراً بين الفـاطميين فى مصر والتركمان والتى انتهت باستعادة القدس قد مهدت السبيل للصليبيين ، وكان نجاحهم المستمر ضد الحـكام العباسيين فى الرهاء وأنطاكيـــة وغيرها جعلت الأفضل يأمل فى عقد تحالف معهم ضد أعداء العباسيين وضد الخطر المغولى المستمر فى الشرق .

وسرعان ما تكشفت له الحقيقة فقد حاصر الفرنجة بيت المقدس ودخلوه بعد أربعين يوما وذبحوا جميع السكان فقتـلوا أكثر من سبعين ألف مسلم أعزل من السلاح . وسقطت المدن الأخرى فى فلسطين الواحدة تلوالأخرى وأخيراً نجح الأفضل فى إيقاف تقدم الفرنجة فى عسقلان وكانت آخر ما تبقى للفـاطميين من إمبراطوريتهم فى سورية . وخلف بلدوين جوفرى فى مملـكة المقدس ثم قاد حملة ضد مصر ولـكنها لم تتم ووقفت عند العريش بسبب المرض الشديد الذى أصاب بلدوين ثم وفاته بعد ذلك .

وبعد أن حكم الأفضل طوال عهد المستعلى بن المستنصر وعشرين عاما من حكم الآمر الذى خلفه أمر هذا الأخير باغتيـــاله عام ١١٢١ م وخلفه الوزير البطائحى الذى يرجع إليه الفضل فى بناء مسجد الأقمـــر الرشيق . وبعد وفاة الأفضل بدأ الدمار يسرع الى الدولة الفاطمية فجاءت نهايتها بعد مضى خمسين عاما. وفى هذه الفترة أقيمت بضعة آثار أنيقة معظمها لسيدات آل بيت الرسول. وأجمل هذه الآثار هو مشهد السيدة رقية .

وأصبح كل خليفة يتولى الحكم أضعف من سلفه فأصبحوا ملوكاً مستضعفين « Rois Fainéants » وحكموا البلاد بواسطة وزراء كانوا بدورهم ضحية لدسائس البلاط فأهمل الدفاع عن الحدود وانتهز الصليبيون الفرصة واستولوا عام ١١٥٣م على مدينة عسقلان .

وفى النهاية تمادى أحد الوزراء فقتل أحد الخلفاء وأخويه بدافع الانتقام لنفسه ونودى بالفائز خليفة وهو طفل صغير وسط مناظر الدماء المخيفة التى أثرت فيه لدرجة أنه ظل مشاولا حتى وفاته المبكرة عام ١١٦٠م . ولم يُترك القاتل ينعم بجريمته فقد أرسل حريم القصر جدائل شعرهن علامة للاستغاثة الى الصالح طلائع بن رزيك . وهو حاكم شديد البأس تنبأ له أحد النساك بولاية حكومة مصر . فحضر مع جيوشه السودانية على جناح السرعة وقبض على زمام الأمور وتولى الوزارة وبدأ يحكم البلاد بهمة وحكمة وكان الصالح طلائع رجلا تقياً يحب الأدب ويميل إلى إحاطة نفسه بالشعراء وعلماء الدين وكان قادراً على المشاركة فى الجدل ومساجلة الشعراء بشعره . وقد شيد مسجداً جميلا أعده ليحوى أثراً مقدساً هو رأس الحسين سبط النبى الذى قتله الأمويون فى كربلاء عام ٦٨٠م فقد احتفظ به الفاطميون التقاة فى ضريح بعسقلان ثم نقلوه عند اقتراب الصليبيين ولكن الخليفة أبى أن يدفن رأس الشهيد الكريم إلا فى مسجد ملكى فشيد له ضريحاً خاصاً قرب مقر الخلافة فى مكان المسجد الحالى لسيدنا الحسين ويظن أنه لا يزال فيه. وعلى كل فقد أتم الصالح مسجده، وهناك قصة ظريفة بأن قطعة خشب عليها دم الحسين وضعت وسط واجهة الصحن لتحفظ فيه عوضاً عن رأس الحسين . وقد قتل الصالح على يد إحدى عمات الخليفة الصغير العاضد الذى ولى الخلافة بعد الفائز الطفل المشاول . ولم يسمر ابنه رزيك فى الوزارة طويلا بعده ، فتولى الوزارة شاور وقد قدر

له أن يكون سبباً فى سقوط الدولة الفاطمية ونهايتها ، إذ أنه عند ما عزل وحل محله أحد منافسيه ذهب إلى سورية وطلب المعونة من الأمير السنى نور الدين حاكم دمشق ، فأرسل هذا لمعاونته أحسن قواده وهو شيركوه الكردى الذى اصطحب معه ضابطاً صغيراً هو ابن أخيه أيوب المسمى صلاح الدين المشهور الذى سنعرض لتاريخه فى الفصل التالى .

وقد عقب ذلك سلسلة من المؤامرات والمعارك فبعد أن أعيد شاور إلى منصبه خشى من قوة حليفه ولجأ إلى أملريك ملك الفرنجة فى بيت المقدس ، ليعينه على الخلاص من هذا القائد السنى ، ففتح بذلك أبواب القاهرة للصليبيين الذين لبثوا بالمدينة أمدا ، وتلى ذلك مؤامرة معقدة ذات ثلاث شعب بين الفرنجة والخليفة الشيعى وقواد نور الدين السنيين ظن فى خلالها ملك بيت المقدس أن الفرصة مواتية لفتح مصر فوصل إلى بلبيس واقتحمها ولم يعبأ بوعوده وذبح جميع السكان بمن فيهم من عجائز ونساء وأطفال ، وحين علم المصريون بهذه القسوة البالغة ورغبة فى أن يسبقوا حليفهم الخائن ، أشعلوا النار فى مدينة الفسطاط القديمة التى ظلت دهراً طويلا حاضرة لمصر وكانت غاصة بالسكان فهجر الناس دورهم وظلت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوماً .

وأخيراً رحب الخليفة بقدوم شيركوه فدخل القاهرة فى حفل كبير وقتل شاور وجعل شيركوه وزيرا بدله ولكنه لم يلبث فى المنصب طويلا اذ مات من اكلة اتخمته وخلفه صلاح الدين .

مات الخليفة بعد ذلك بعامين وازيلت الخلافة الفاطمية . وبعد أن كان صلاح الدين قائدا لنور الدين ووزيرا للعاضد اصبح سلطان مصر ومؤسس

الدولة الأيوبيـة ، وأهم من ذلك حاول مذهب السنة محل الشيعة وظلت حتى اليوم المذهب الرئيسى فى الدولة .

ومما يرويه المؤرخون ، نستطيع أن نستخلص أن المصريين زمن الفاطميين كانوا لايعاملون بمثل الشـدة التى عاملهم بها من جاء بعـدهم وعلى حسب رواية ناصر خسرو ، الذى زار مصر فى أيام الرخاء فى عهد المستنصر، كانت الصناعات المحلية رائجة فى المدن التى كانت لها علاقة اقتصادية منظمة مع أهالى الريف . ومع أن الرى كان منظما إلا أنه لم يـكن بحيث يواجه النتائج المروعة التى تترتب على الفيضان المنخفض فـكان القحط المخيف يفتك بالأهالى فتـكا ذريعا وغالبـا ماكان يعقبـه الوباء كما كانت الحال فى أوروبا فى العصور الوسطى عندما كانت وسائل الوقاية مجهولة وغير معروفة على الأطلاق .

وكان الجنـد هم سبب الاضطراب فى عهـد الفاطميين وكانوا اذ ذاك فريقين : مرتزقة التركمان وجنـد السودان والبربر الذين تبعوا جوهرا من شمال افريقيـة ثم غصت بهم القاهرة فيما بعد بعد أن ظاهرتهم أم المستنصر الزنجية وقد أضيف إليهم فيما بعد الجنود السوريون المدربون الذين جلبهم معه بدر الجمالى عام ١٠٧٤ م ويظهـر أن هؤلاء الجنود كانوا أحرارا يتنـاولون مرتبات عالية ولم يكن نظام استخدام حرس من المماليك ـ كما كان متبعاً فى بغداد وفى عواصم السلجوقيين ـ قد وصل الى ذروته التى قدرت له زمن سـلاطين الأيوبيين . وكان من مزايا حكم الفاطميين ومظاهره التسامح الـكبير الذى أظهروه نحو اليهود والمسيحيين . فكثيرا مانجد وثائقاً عن تولى اليهود والأرمن الوزارة واسمى المناصب كما حدث فى عهد العزيز وكان ذلك مثار حسد المسلمين وسخطهم وقد تسبب الصليبيون بتـكرار قسوتهم وفظاعتهم فى الأقلال من هذا التسامح .

وفى عهد الفاطميين وصلت الصناعات فى مصر إلى مستوى عال جدا ويرجع ذلك إلى الاتصال المستمر بفارس وآسيا الصغرى من ناحية وصقلية والقسطنطينية من ناحية أخرى ، فأنتج الصناع والفنانون أعمالا رائعة فى الحفر على العاج وآنية الزجاج والخشب التى لايزال بعضها موجودا فى المتاحف والمجموعات الخاصة وفى الكنائس . وقد شجع بدر الجمالى وابنه الأفضل من بعده صناعة النسج فراجت فى تنيس ودمياط (موطن الدميتى Dimity . كما أن الموصل فى الجزيرة موطن الموسلين) وكذلك فى الفسطاط . وقد انتجت الفسطاط أيضا خزفا قيّما وجدت بعض قطع منه فى خرائبها وقد ثبت أنها صنعت فى أفرانها .

***

الفصل الثالث

صلاح الدين الأيوبي وأسرته

يمتاز يوسف صلاح الدين زيادة على صفاته الواردة فى هذا الكتاب بخاصة فريدة هى شهرته بين أبناء الغرب . فإن الدور الهام الذى قام به فى تاريخ الحروب الصليبية وقتاله للملك رتشارد قلب الاسد ثم مفاوضته معه أذاعت صيته بين قراء تاريخ العصور الوسطى وأقاصيصها . ومن مفاخره أن صفاته التى تحلى بها كانت من أبدع ماورد فى التاريخ . وليس بدعا أن يكون صلاح الدين رجلا شجاعا وقائدا محنكا ولكنه فى تلك العصور حيث سادت الهمجية ، كان صلاح الدين يحق الحق ويتحرى العطف والرحمة ، وبينما كان الفرسان الفرنسيون والبريطانيون والأمراء فى جميع أنحاء أوروبا كثيرا ما يحنقون وينقضون معاهداتهم وتعهداتهم بتشجيع رجال الدين ، كانت كلمة صلاح الدين يثق بها العدو والصديق ، وكانت معيشته بسيطة تقية ولم تكن له هواية الا الرياضة المحببة إلى الفرسان مثل اللعب بالكرة [1] وكان يميل الى المساجلات العلمية مع رجال الدين وكان تقيا ورعا للغاية واتبع مذهب السنة فى الدين الإسلامى بأخلاص شديد وحماس بالغ . وكانت أولى غاياته عند ما وجد نفسه صاحب القوة والسلطان الحقيقى فى مصر أن ينتشل البلاد من مذهب كان يعتبره الكفر الصريح ويرجعها الى المذهب القائم على السنة ولكى يحقق هذه

---

(١) هى لعبة الكرة والصولجان وتلعب من فوق ظهور الخيل وتعرف الآن باسم البولو Polo وقد جاءت من إيران وكانت شائعة بين الأمراء الشرقيين فى ذلك العهد.

الغاية شيد المعاهد والمدارس الدينيـة وأحضر إلى مصر اشهر علماء السنـة وخصوصا أتباع مذهب الأمام الشافعى .

وقد جاء هذا العالم إلى الفسطاط فى بداية القرن التاسع الميلادى وأسس أحد المذاهب الأربعة الرئيسية فى السنة . وظل كثير من أتبـاعه ثابتين سرّاً على مبدأه طوال الحـكم الفاطمى . وقد توفى فى الفسطاط وبنيت القبـة التى تغطى ضريحه زمن الدولة الأيوبية . وقد عمل صلاح الدين جهده لـيكسب حب المصريين له بعدله ورحمته وقد أعانه كثير من اخوته الذين انضـموا إليه فى الحال وكذلك أبوه الذى أتى إليه بعد عام . وكان أيوب شيخـاً سياسيـاً حصيفاً تمتع سنين طويلة بنفوذ قوى فى بلاط نور الدين العظيم سلطان دمشق الذى أرسل كلا من شيركوه وصلاح الدين إلى مصر . وقد عهد صلاح الدين إلى أبيه بالوزارة حال وصوله ولـكنه رفضها وبقى إلى جانب ولده يمده فقط بنصحه وإرشاده وخبرته .

وكان لنجـاح صلاح الدين ضد الصليبيين أثر كبير فى تدعيم نفوذه فاستطاع فى سنة ١١٧١م أن يحقق الانقلاب الدينى الذى طالما تمناه . فحل فى خطبة الجمعة اسم الخليفة العباسى محل اسم الخليفة الفاطمى العاضـد وقد كان فى قصره لا حول له مريضاً مرض الموت . وقد تم ذلك بغـير معارضة وكتم الأمر عن الخليفة رحمة به وقد مات بعد ذلك بثلاثة أيام بغير أن يدرى بسقوط أسرته . ومع أن سنه كانت ٢٢ عاما إلا أنه خلف أحد عشر ولداً وأربع زوجات وثمانمائة من الأقارب الآخرين . ولـكى يضمن صـلاح الدين عدم قيام أحد منهم بطلب السلطان عزلهم فى قصرين مختلفين بها وسـائل الراحة والترف فجعـل الرجال فى قصر والنساء فى آخر ولست فى حاجة إلى تذكيركم بأنه فى الحالات المماثلة فى العصور الوسطى فى أوروبا كان يلقى بمن كانت تخشى

مطالبتهم بالعرش فى البيع والأديرة لنفس الغرض . ولكن هذه الطريقة لم تنجح تماماً فقد ظهر بضعة مطالبين بالخلافة بعد ذلك بسنين قليلة .

وكان صلاح الدين دائم الزهد والتقشف فلم يستول على قصر الخليفة لسكناه بل قنع بقصر الوزارة الذى كان نازلا به ولم يمس شيئا من الأموال بل أرسل نصف كنوز الخليفة إلى نور الدين وقسم الباقى بين الفقراء .

وهكذا أصبحت مصر تحت حكم رجل من عظماء العصور الوسطى ولكنه لم يقدر لها أن تتمتع بعاهلها الجديد طويلا فقد شغل صلاح الدين بجهاده ضد الصليبيين ، وقد فرضه دينه واجبا مقدسا عليه ، ولا محل للتطويل فى ذلك هنا ، فقضى معظم وقته مجاهدا فى سورية وخلف على القاهرة وزيره قره قوش . وقد أشرف هذا على بناء السور المنيع الذى قرر صلاح الدين أن يحيط به الفسطاط العاصمة الأولى والقطائع مدينة ابن طولون والمدينة الفاطمية القاهرة . لم يكن قره قوش قد أوتى اللباقة والسيطرة الشخصية مثل سيده وقد جعل نفسه مكروها من كل الشعب حتى أن أسمه لا يزال ممقوتا لدى أهل القاهرة ولا تزال تقص قصص سخيفة فى مقاهى القاهرة لا أساس لها عن أحكام جائرة أو مضحكة تنسب اليه وهو دائما البطل المصرى السيء الحظ ويماثله (بنش وجودى Punch & Judy) عند الانجليز وربما كان ذلك لاختلاط اسمه باسم لص تركى خرافى يدعى قره جوز (العيون السود) .

وبينما كان قره قوش مشتغلا ببناء قلعة حصينة تسيطر على المدينة وترد عنها العدوان وكذلك فى تدبير المؤن والأمداد للجيش فى سورية كان صلاح الدين مواليا سلسلة انتصاراته فسلمت اليه القدس عام ١١٨٧ ، بعد أن بقيت فى يد الفرنجة ثمانية وثمانين عاما . وتعد معاملة صلاح الدين للحامية المسيحية مثالا لكرمه وعفته . ويقول المؤرخون المسيحيون أنفسهم أنه لم تكن هناك قسوة

بغير داع ولا سوء فى المعاملة فقد سمح للناس بأن يفتدوا أنفسهم وغيرهم وقد استوهب العادل — أخو صلاح الدين وكان عنده أثيرا — الفا من الأسرى ثم أطلق سراحهم تقربا من الله . وقد أمر صلاح الدين نفسه باطلاق سراح الشيوخ العاجزين عن دفع الفدية . وعامل السلطان النساء ، وهن زوجات وبنات الفرسان اللائى لجأن الى بيت المقدس حينما قتل أو أسر رجالهن، معاملة بالغة حد الكمال والعطف .

ولما سقطت معظم مدن سورية وفلسطين فى يد صلاح الدين طلب الصليبيون وقف القتال للمفاوضة وقد أنضم إلى صلاح الدين فى فلسطين أخوه سيف الدين العادل السابق ذكره والمعروف عند مؤرخى الفرنجه باسم « Safadin » وهو الذى قام بعملية المفاوضة مع رتشارد فتصادق معه ، بل يقال أن رتشارد عرض عليه أن يزوجه أخته جوانه أرملة وليم الطيب ملك صقلية وأن يتبوأ الاثنان عرش بيت المقدس ولكن البطارقة أنزعجوا وأبوا أن يتموا هذه المصاهرة التى لا تمت للدين بصلة ، ولا شك أن هذه القصة هى التى الهمت السير والتر سكوت الروائى شخصية اديت بلانتا جنيت الخيالية ولم يكن الملك الانجليزى المتهور قد استشار أخته التى لم تكن راغبة فى الزواج من مسلم .

وقد خلد التاريخ اسم احدى زوجات سيف الدين العديدات وهى الملكة شمسة وتعرف أيضا بالعادلية نسبة الى زوجها فهى التى شيدت القبة القائمة فوق قبر الأمام الشافعى ويوجد ضريحها البديع الزخرفة تحت نفس القبة .

ولما تعذر الاتفاق ، استأنف صلاح الدين جهاده المظفر الذى قطعته وفاته بالحمى فى دمشق عام ١١٩٣ ، ومع أنه قد أنجب ستة عشرة ولدا ألا أنه لم يكن بينهم من هو أهل ليحل مكانه مثل أخيه العادل . وبعد سلسلة مؤامرات معقدة لاداعى لسردها هنا أصبحت مصر بين يدى هذا العاهل القادر الذى تبوأ

الحكم أولا وصيا على ابن العزيز أحد أولاد صلاح الدين ، الذى مات فى القاهرة بعد أن حكم خمس أو ست سنوات . أما باقى أجزاء الامبراطورية الأيوبية الشاسعة فقد قسمت بغير عدل بين بقية أبناء صلاح الدين أ ما ابنته الوحيدة الاميرة مؤنسة فانها اقترنت بابن عمها الكامل ابن عم العادل ووريثه وقد أتاح الاختلاف والانقسام الذى عقب وفاة صلاح الدين فرصا طيبة للصليبيين كانت معدومة عندما كان العالم الاسلامى فعلا تحت حكم واحد . ولما وجدوا أن مصر هى أساس المقاومة انتهزوا فرصة انشغال العادل فى حرب سورية وهاجموا منبع قوته فأبحروا فجأة الى دمياط وحاصروها عام ١٢١٨ م .

كان الكامل بن العادل يحكم مصر أثناء غياب ابيه فأسرع إلى الدفاع عن دمياط وتمكن من مدافعة الفرنجة أربعة أشهر وأخيرا استطاعوا بواسطة أبراج الحصار القامة على السفن أن يستولوا على الحصن وهو قلعة منيعة متصلة بالشاطىء بسلسلة من الحديد تمنع السفن من الدخول الى فرع النيل . فمات العادل وقد كبرت سنه عند بلوغه الخبر أثناء عودته من سورية وبقى الكامل يدافع عن مصر وحده وكان الخناق مضيقا عليه وتجابهه الثورات والمؤامرات بين امرائه فلم يستطع انقاذ دمياط واقتحمها الصليبيون فى النهاية وقتلوا أهلها بلا هوادة ومن نجا ساقوه أسيرا . وشعر الكامل بأن قصدهم القاهرة فحصن مدينة المنصورة الواقعة جنوب دمياط ودعى أقاربه من سورية لشد أزره وشعر فى ذلك الحين بأنه قادر على المفاوضة فى الصلح فعرض على الصليبيين إرجاع مملكة بيت المقدس كما كانت قبل عهد صلاح الدين وذلك فى مقابل دمياط ولكن الصليبيون أطاعوا قسسهم طاعة عمياء ورفضوا هذا العطاء السخى المدهش وقد ندموا فيما بعد على رفضهم الجنونى هذا . ولما حل الصيف وامتلأ النيل بماء الفيضان قطع المسلمون فى يأسهم السدود والجسور وأغرقوا

الدلتا كلها فوجد الفرنجة أنفسهم منعزلين وقد تكاثر عليهم عدوهم وسرهم أن يفاوضوا فى إرجاع دمياط بغير أن يعوضوا شيئا مما رفضوه أولا فأبرمت معاهدة بشروط ظهر فيها تسامح الكامل ورغبته عن زيادة العداء الدينى .

وقد سبق الكامل عصره . فقد أظهر طوال مدة حكمه روحا ميالة الى السياسة والتسامح حتى عاب عليه معاصروه نقص الحماس الدينى عنده . وقد وجهت التهمة ذاتها الى فردريك الثانى امبراطور المانيا الذى اجرى مع الكامل مفاوضات سادتها روح المودة حتى شك قومه فى ميله الى الاسلام ومع ذلك فقد حصل للمسيحيين على بيت المقدس والقبر المقدس فيما خلا قبة الصخرة التى اشتهرت باسم جامع عمر . وقد تولى على سلطنة مصر بعد الكامل أكبر أولاده ولكنه لم يبق طويلا إذ عزله أخوه الصالح نجم الدين أيوب بعد سنتين ثم تولى بدله . ولما كان هذا الأخير لم يحصل على العرش إلا بالمؤامرات فقد عمد، لكى يثبت سلطانه ، إلى الامراء والمماليك الذين عاضدوه وآزروه على اغتصاب العرش فقبض عليهم وقتلهم ، ثم أنشأ جيشاً جديداً من المماليك من شباب أصلهم تركمانى ابتاعهم من مختلف الأسواق وجعل منهم حرساً خاصاً فائق المهارة وكان اسمهم الحلقة السلطانية وأنزلهم ثكنات شيدت خاصة لهم فى جزيرة الروضة ولهذا السبب لقبوا بالمماليك البحرية . وهذا أمر له خطره فانهم أساس الأسرة الأولى من سلاطين المماليك وسنكتب عنهم فى الفصل التالى . كان الصالح رجلا عظيم الشجاعة والقدرة نجح فى استرجاع قدر كبير من امبراطورية صلاح الدين الشاسعة وانتزعه من يد الفرنجة ومن يد أقاربه من بنى أيوب الذين حكموا مدن سورية . ولكى يتمكن من تحقيق أهدافه لم يتوان عن الاستعانة بجموع من البربر هم الخوارزميين الذين كانوا قد أسسوا امبراطورية شملت خيوه وبخارى وسمرقند ثم بدأوا يجلاون عن مرتفعات آسيا بتقدم

جنكيزخان القائد المغولى الشهير الذى بدأ فى اجتياح الشرق عام ١٢١٨ م ، وهكـذا استطاع الصالح استرجاع بيت المقدس ودمشق . وفى دمشق مرض بالغنغرينا من قرحه فى كعبه يقال أنها تسببت من تعمد وضع السم له على حصير اعتاد الجلوس عليها كل مساء عارى القدمين ليلعب الشطرنج . وفى تلك الأثناء وصلته أنباء من مصر جعلته يأمر بالاسراع فى العودة إلى القاهرة محمولا فى محفة لعجزه عن الركوب أو الوقوف .

كانت تلك الأنباء هى نزول الفرنجة قرب دمياط . وكانت هذه هى الحرب الصليبية السابعة ولم يكن يقودها كسابق العهد فرسان ذوى طموح يسعون لتحقيق مطامعهم فى الدنيا ويقتتلون دواما فيما بينهم على السلطان وغنائم الحرب واسلابها ، بل يقودها أمير متدين هو لويس التاسع ملك فرنسا الذى رفعته الـكنيسة عن جداره إلى مقام الأولياء والقـديسين وكان لفضائله وتقواه أثر عميق حتى فى نفوس الشرقيين الذين اتصلوا به خلال هذه الحرب. وأن تاريخ تلك العصور الملىء بالدماء والفظائع لدرجة أن المرء يشعر بغبطة الفرح عندما يعثر على شخصين مثل صلاح الدين والقديس لويس . وقد أحضر معه ٥٠٫٠٠٠ مقاتلا ، بينهم نخبة فرسان فرنسا وذخيرة كاملة من الامداد وأدوات القتال . وكانت دمياط قد عنى بتجهيزها وشحنت بالأقوات وترابط فيها قبيلة بدوية تحب القتال . ولـكنهم أخذوا على غرة بوصول مراكب الفرنسيين ولاريب أنهم قد تذكروا ما حاق بالحامية المسكينة عام ١٢١٩ م فركـنوا إلى الفرار واحتل الفرنجة المدينة بغير عناء .

تراجعت الجيوش المصرية بقيادة الأمير فخر الدين إلى المنصورة حيث أمر السلطان أن يحملوه بالرغم من مرضه ومن المحتمل أن زوجته التى كان يثق بها قد صحبته لخطورة حالته وقد كان يعهد إليها دائما بأمر عاصمته عند تغيبه فى الحروب وكانت هى التى أخطرته بالخطر الحالى .

وتستحق هذه المرأة الفذة أن نولى تاريخها شيئا من الأسهاب أكثر مما أوليناه للشخصيات الأخرى . إذ كانت فى الأصل جارية من قبائل التركمان (وربما من الأرمن) تزوجها الملك الصالح بعد أن ولدت له غلاما مات فى طفولته . وقد حباها الله بجمال وذكاء فائقين فكان لها حظ كبير من السيطرة عليه والتأثير فيه لدرجة انه كان يستشيرها فى أمور الدولة . وقد ازدادت حالة الصالح سوءا بعد أن مكث قليلا فى معسكر المنصورة ثم مات فى الوقت الذى تحرك فيه الفرنجة من دمياط وأدركت السلطانة شجرة الدر الخطر المحيط بجيش المسلمين بعد أن فقد قائده فى الوقت الذى يسرع فيه العدو متقدما للقتال، فقررت إخفاء خبر موت زوجها ولم تفض به إلا إلى ثلاثة من أتباعها المخلصين واستدعت كبار الأمراء الى مجلس أعلنتهم فيه بأن السلطان إنما تمنعه شدة المرض من لقائهم وأنه يطلب إليهم أن يحلفوا يمين الولاء له ومن بعده لابنه توران شاه (وكان إذ ذاك بالجزيرة) وأن السلطان قد نصب الأمير فخر الدين للقيادة . فأدى الأمراء القسم بلا تردد وأرسلت الأوامر إلى القاهرة حاملة توقيع السلطان ، وقد اتقن تقليده عبد يدعى سهيل ، وحمل الطعام الخاص إلى الخيمة السلطانية ، وجاء طبيب البلاط لعيادته كالمعتاد وفى الواقع لم يهمل أى تفصيل يعطى الأمر مظهر الحقيقة التى لا شك فيها . وانقضت ثلاثة أشهر قبل أن يستطيع توران شاه العودة من الجزيرة وهو ولد الصالح من زوجة سابقة . وفى خلال هذه الفترة كانت شجرة الدر تحكم السلطنة تحت ستار اسم زوجها المتوفى . وكانت الحالة محرجة حقا فقد اقترب الجيش الصليبى من المنصورة وبدأ فى مهاجمتها فى ٨ فبراير عام ١٢٥٠ م بشجاعة جعلته يهمل الفطنة الحربية ، وتبع ذلك قتال عنيف قتل فيه الأمير فخر الدين قائد المسلمين وخيل للناس أن كفة الفرنجة هى الراجحة ولكن المماليك البحرية الذين اتقن الصالح أيوب تدريبهم قلبوا الآية فى ذلك اليوم بقيادة أحدهم وهو بيبرس —

وسنتكلم عنه بإسهاب فى الفصل التالى — فقاد هجوما عنيفاً لا يقاوم ضد انفرنجة الذين غلبوا على أمرهم ومزقو إرباً فقتل مئات من الفرسان فى ذلك اليوم وكان أخو الملك فى جملتهم وهو الكونت روبير دارتوا الذى تسبب بطيشه ونزقه فى وضع الجيش فى مركز مكشوف ، وقد تركت هذه المعركة الدامية الأمور كما كانت قبلا فقد تحمل الفريقان خسارة فادحة ولكن الموقف بالنسبة لهما ظل على حاله . وبعد فترة ظل الجيشان فيها يرقبان بعضهما وصل توران شاه من الجزيرة واستطاعت السلطانة فى النهاية إعلان وفاة زوجها ووراثة ولده لسلطنته ثم ألقت مقاليد الأمور إليه فتقبل الشاب ذلك منها وهو بادى الجفاء ويظهر أن فضائله الوحيدة كانت الشجاعة وحسن القيادة إذ دبر خطة لهجوم مزدوج فى البر والنهر بلغ من نجاحها أن سقطت ٣٢ سفينة من سفن لويس فى أسر الأسطول المصرى الذى أحضر قطعاً محمولة من القاهرة وأنزل فى الماء بسرعة خلف سفن الصليبيين الذين لم يتوقعوا هذه الخطة البارعة . وقد فت ذلك فى عضدهم فحاولوا التفاوض عبثاً ، وأخيراً تراجعوا من المنصورة إلى دمياط حيث أملوا أن يجدوا موئلا وملاذاً ، ولكن المسلمين تبعوهم ولحقوا بهم عند فارسكور حيث دارت رحى مذبحة عظيمة قتل وغرق فيها ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً من الصليبيين حسب ما رواه مؤرخو المسلمين . وأسر الملك القديس نفسه وحاشيته وبينها جوانفل المؤرخ المشهور الذى يرجع إليه الفضل فى كثير من هذه التفاصيل . وقد ظلوا فى الأسر حتى أفتدوا .

وهكذا بدأ آخر سلاطين الأيوبيين حكمه بانتصار عظيم وظروف مواتية ولكن سوء سلوكه وقصر تدبيره كانا السبب فى هلاكه ، فقد ثمل من خمر الانتصار وتبوأ الملك فظن نفسه أنه أوتى من البأس والقوة قدراً يجيز له أن

يهين أمراء والده ، فأساء معاملتهم وتمادى فى ذلك حتى أنه قتل بعضهم ، وقد أثارت رذائله وقسوته حفيظة المماليك وزاد الطين بلة بإهانته زوج أبيه التى صانت له العرش وكانت فوق ذلك محبوبة من رجال البلاط والجيش الذين قارنوا بين إدارتها الحكيمة العادلة وبين إدارة ذلك الشاب الفاجر ، الذى كان يقضى وقته منذ انتصاره محاطاً بحاشيته الماجنة التى جلبها معه من الجزيرة، فاستقر رأيهم على قتله وكان بيبرس أول من هاجمه فالتجأ السلطان إلى برج خشبى بنى مؤقتاً على شاطىء النيل فاشعل قاتلوه النيران فيه فلما ألقى بنفسه فى النيل طلباً للنجاة سبح خلفه بيبرس وقضى عليه . وقد نزعوا قلبه ووضعوه على صحن وقدموه إلى الملك لويس ؛ ويمكننا أن نتصور مقدار فزعه حينذاك. وكذلك كانت الخاتمة الأليمة للدولة الأيوبية التى بدأها صلاح الدين بعظمة باهرة وكان لمصر منها ثلاثة من أقدر وأعظم الحكام فى شخص العادل وابنه الكامل وحفيده الصالح نجم الدين أيوب . وقد تسبب الأخير بشكل غير مباشر فى سقوط ابنه بإنشائه عصبة قوية من ضباط المماليك قدر لها أن تمد مصر بالحكام خلال المائتين وخمسين عاما التالية .

ومع ذلك فانهم لم يقرروا تنصيب أحدهم فى الحال على العرش ولكنهم عمدوا الى تقليد لم يعهد من قبل فأجلسوا على العرش امرأة هى أرملة سيدهم التى خبروا عقلها وحكمها المفيد . فنودى بشجرة الدر سلطانة على مصر بأسم السيدة أم خليل نسبة الى ابنها من الصالح . ويختص الفصل التالى بتاريخ بقية حكمها القصير وحياتها الحافلة . وعلى ذلك فسوف أكتفى بالأشارة هنا الى أن أول حاكم تولى بالانتخاب فى مصر الأسلامية كان أمرأة وكانت أول مثل لسلسلة حكام أجلسهم على العرش أمراء المماليك الشاكسين وقد ظلت دولتهم مستمرة فى الحكم حتى الفتح التركى ومن هذا التاريخ لم يكن يتبوأ العرش

أحد إلا بموافقتهم حتى فى حالة ما يوصى أحدهم بالسلطنة لابنه ، وفى كثير من الحالات يكون ذلك تمهيدا لاستيلاء الوصى نفسه على العرش . ولأول مرة فى عهد توران شاه عرف المماليك الذين جمعهم أبوه ودربهم مدى بأسهم وسطوتهم واعتزموا أن يستغلوا ذلك لأنفسهم . ومن هـذا الحين استولوا ، ومن أتى بعدهم ، على البلاد وحكموها كأجانب يولون ويعزلون عن عرشها من شاءوا من بينهم، وكونوا أحزابا تشن الحرب على بعضها البعض دائما . وكانت هـذه المعارك الدائمة مصدر فزع للسكان الذين كانوا فى شقاء دائم ومهما كان المنتصر من أى حزب فان حقولهم ومتاجرهم ومصانعهم كانت تنهب أو تدمر بجنون ، وكانت نسائهم فى خطر دائم على حريتهن . وكانت الضرائب الباهظة تفرض كلما احتاجوا للمال ولكن القليل منها كان يصرف للصالح العام . وأمر سلاطين المماليك وزراءهم ببناء مخازن كبيرة للغلال ، تشبه التى عملها يوسف عليه السلام وملئها للاستعانة بها على القحط الذى كان يتلو فيضانات النيل المنخفضة ، ولكنهم كثيرا ما استغلوها وسيلة للاثراء ببيع الحبوب بأثمان فاحشة للشعب الجائع . ولم يكن . يبدو من المزارعين أية مقاومة على الأطلاق لطول ماقاسوه ولعجزهم إزاء هذا الاستبداد فاستمروا فى كدحهم صابرين شاكرين لله نعمته اذا حدث وجاء سلطان اكثر رحمة من الباقين خفف بعض الضرائب أو وزّع بعض العطاء .

كان الحفر على الخشب أظهر الأعمال الفنية أثناء العصر الأيوبى .وتوجد بدار الآثار العربية بالقاهرة بعض لوحات عديمة المثال فى فنها وأناقتها .

ولم يظهر السلاطين أنفسهم أى ميل للترف والفن هذا الميل الذى كان يحث ، فى العهود الأخرى ؛ أرباب الفن على الأبداع فى انتاج آنية الفخار والزجاج ... الخ لاستعمال البلاط . فكانت جل جهودهم موجهة إلى تجميل المساجد ولا يزال

بعضها يحوى قطعا فنية بديعة من الخشب ويلاحظ أنه فى زخارف الخشب والجص ، الذى بلغ حدا فائقا من الاتقان فى ذلك الوقت ، لم يعد للخط الكوفى الذى استعمله الفاطميون شأن ، فلم تعد الكتابات التاريخية تدون به (١) واستعاضوا عنه بطراز قديم من الخط العربى الحالى المعروف باسم النسخ وقد كان شائعا فى سورية من قبل ثم أدخله صلاح الدين فى مصر وربما كان ذلك لارضاء شعوره الدينى باحلاله النسخ محل الكتابة الفاطمية . ولسوء الحظ فان رغبته فى محو الشيعة قادته وخلفاءه إلى إزالة مقابر اسلافهم وقصورهم فكانت خسارة علم الآثار بذلك جسيمة .

---

(١) وعلى كل حال فقد ظل الخط الكوفى مستعملا ولكن فى الكتابات الزخرفية فقط .

الفصل الرابع

التركمان أو أسرة المماليك البحرية (١)

يلوح ان شجرة الدر أدركت شذوذ موقفها عند ما قبلت مقاليد الحكم عقب مصرع ابن زوجها وتصبح صاحبة الأمر على المماليك الذين كانوا مثلها ملكا للصالح أيوب . وقد أرسلت إلى الخليفة فى بغداد تقدم خضوعها وتطلب موافقته ثم لم تنتظر رده بل بدأت فورا بتنفيذ المعاهدة التى افتدى لويس نفسه بمقتضاها بمبلغ جسيم من الذهب وأخلى دمياط .

وكانت هذه المعاهدة قد أمضيت قبل موت توران شاه فأراد الأمراء نقضها وفرض شروط قاسية ولكن السلطانة رفضت نقض الوعد الذى قطع. ومما يعلى قدرها موقفها الصريح هذا ولكنها شعرت بالحاجة الى تقوية مركزها فعينت عز الدين أيبك أكبر المماليك ، اتابكا واستجلبت رضاء الشعب بتخفيض الضرائب المستديمة . ومن المرجح أن الفدية التى دفعها لويس قد جعلت ذلك سهلا ميسورا . ومع ذلك فقد حيل بينها وبين البقاء على العرش فان خطابها لم يصادف لدى الخليفة قبولا وورد يقول «فاذا لم يكن بين المماليك رجل كفء للحكم فإنه مستعد لأرسال واحد لمصر» ولكنهم وفقوا لحل الأمر بالمناداة بأيبك سلطانا ، واحتفل بقرانه بشجرة الدر التى قيل أنها أحبته من قبل

(١) يفضل الدكتور محمد مصطفى زيادة استاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول ، أن يلقبها بدولة المماليك الاولى . (المترجم)

وبذلك ضمن لنفسه مؤازرة اتباعها ، ولم يتغير الحال بذلك إلا قليلا بل لم يكن هناك خلاف فإن شجرة الدرظلت تحكم باسم زوجها بدلامن اسمها وقد ارتضت هذا الأمر لانها لم تكن من أولئك النسوة اللائى يفضلن المظهر على الحقيقة .

ولكن سرعان ما قامت المصاعب ، فان سلالة الايوبيين فى سورية لم يرتضوا أن يقصوا عن الملك هكذا بغير نضال ، فقام أحدهم وهو الناصر صاحب حلب وابتزع دمشق من مصر وهنالك رأى المماليك أن من الحكمة أن يضموا إلى ايبك أحد الأمراء من بنى أيوب، فاختاروا حفيداً للكامل فى السادسة من عمره فذكر اسمه فى الخطبة مع اسم السلطان ونقش اسمه على النقود وبالرغم من ذلك فان الايوبيين فى سورية جمعوا جيشا وتوجهوا صوب مصر وبعد سلسلة من المعارك استطاع أيبك أن يهزم أعداءه وتخلص من الطفل الشقى الذى اشركه فى الحكم الى جانبه اذ لم تعد إليه حاجة .

فلما انتشى من هذا النجاح أخذ يشعر بالضيق من سيطرة زوجه عليه وأخذ يعد العدة ليتخلص منها أيضا فراسل أمير الموصل يسأله الزواج من ابنته وقد كشف هذا الأمر لشجرة الدر واحد من المماليك كان أيبك قد أساء معاملته ، فاستولى عليها جنون الغيرة والغضب وصممت على قتله ، فدست بعض مماليكها المخلصين فى الحمام السلطانى ولما قدم أيبك بعد لعبه الكرة فى باب اللوق وثبوا عليه وقتلوه ، ويقال أن ذلك كان على مسمع من السلطانة التى تخاذلت عن عزمها ورغبت فى منعهم من قتله ولكن واحداً منهم نبهها الى أن السلطان إن عاش فهو قاتلهم اجمعين .

وقد حاولوا إخفاء مصرعه وروجوا إشاعة بأن السلطان مات بالسكتة واستدعيت البادبات الى القصر ولكن مماليك أيبك « المعزية نسبة إلى لقب

الملك المعز » شكّوا فى السلطانة واستخلصوا الحقيقة من بعض جواريها بعد تعذيبهن ثم قرروا قتلها فى الحال لولا حماية أصدقائها القدماء من المماليك الصالحية ، ولكنهم لم يستطيعوا منع الآخرين من سجنها وأجلاس صبى على العرش ، وهو على ابن السلطان المقتول من زوجة أخرى كان قد طلقها إكراما لشجرة الدر ، وفى خلال إقامتها فى سجنها انتظاراً لما يقدر لها ، عمدت السلطانة التعسة الى لآلئها وجواهرها فدقتها فى هاون حتى لا تتجمل بها أمرأة غيرها . وكان أول عمل للسلطان الصغير هو تسليم السجينة إلى أمه فجعلت هذه تضربها وتقذفها بالسباب والشتائم ، ثم أمرت جواريها فضربنها بقباقيب الحمام حتى ماتت. والقيت جثتها خارج أسوار القلعة فأكلت الكلاب بعضها . وبعد ثلاثة أيام جمع اشلاءها بعض الصالحين ودفنها فى مقبرة صغيرة جميلة كانت قد أعدتها لنفسها فى جبانة قائمة فى جنوبى القاهرة منذ العهد الفاطمى ، بها عدة قبور للسيدات من آل بيت الرسول عليه السلام .

ومع أن حكم هذه المرأة الممتازة لم يظل إلا زمنا قصيرا (١٢٥٠ — ١٢٥٧ م) إلا أنها تركت فى مصر أثرا قويا ، وما زال اسمها خالدا ، وقد أتمت الحج محمولة فى هودج ، وإلى رحلتها هـــذه يعزى أصل المحمل الذى يصحب قافلة الحجاج كل عام . ويقول المؤرخون المسلمون انها استحدثت لحنا موسيقيا خاصا اسمه (نوبة الأميرة) تعزفه فرقة موسيقية وهى تطوف حول القلعة كل مساء .

فى ذلك الحين كان الخطر المغولى يهدد العالم الاسلامى مرة أخرى ، ذلك أن هولاكو حفيد جنكيزخان استولى على بغداد وقتل الخليفة ، وغزا سورية وارتكب فيها أقنى الفظائع ، ثم استولى على دمشق وتوجه صوب مصر . فرأى المماليك أنه لا يصلح فى مثل هذه الظروف أن يكون الملك بيد حدث

صغير فعزلوا عليا الطفل وولوا مكانه واحداً منهم ، وهو قطز عام ١٢٥٩ م ، وساروا لملاقاة الغزاه تحت قيادته وقيادة بيبرس السابق ذكره ، ثم التق المماليك بالمغول عند عين جالوت بالقرب من بيسان ، وأنزلوا بهم أول هزيمة يلقونها وكان يظن أنهم لن يقهروا أبدا . فكان التأثير المعنوى لاحد له . وبالأختصار فإن دمشق وكل الأقليم حتى الفرات استرجع وقفل قطز راجعا إلى مصر ، ولكن بيبرس اغتاله فى الطريق سنة ١٢٦٠ م ، ونصب نفسه سلطانا بدله ، ومر بيبرس وسط معالم الزينة التى أعدت فى القاهرة احتفالا بقطز .

وبالرغم من أن بيبرس بدأ عهده بجريمة قتل ، فقد أظهر أنه من أعاظم الحكام الذين ولوا مصر ، إذ حباه الله بقدرة ممتازة على الأدارة فنظم حكومة مملكته تنظيما حكيما شاملا لدرجة أنه لم يفكر واحد قط من خلفائه فى تغيير نظمه وقوانينه التى ظلت سائدة فى إدارة الحكومة المملوكية وفى الجيش حتى سقوط امبراطورية المماليك . وسنوضح فى الفصل التالى هذه النظم مفصلة لأن الفصل الحالى يستغرقه تاريخ بيبرس نفسه .

ويلقب الظاهر عادة بالبندقدارى نسبة الى ايدكين البندقدار (الضارب بقوس البندق)(١) أحد أمراء المماليك الذى كان تابعا له قبل أن يلتحق بمماليك الملك الصالح .

ورغبته منه فى إثبات نفسه حاميا للاسلام ، استدعى إلى القاهرة أحد أفراد الأسرة العباسية وبايعه بالخلافة فوصل بذلك حبل الخلافة ، بعد أن قتل

---

١ — هو نوع من الأقواس شاع استعماله فى العصور الوسطى وكان يصنع عادة من الصلب ويثبت فى قائم ويجذب الوتر بكلتا اليدين، أو بواسطة رافعة خاصة ثم يطلق بجذب (الزناد)، وكانت ترمى به السهام الثقيلة وبندق من رصاص ومن هنا نشأ اسم البندقية . ويقول القلقشندى فى صبح الاعشى ج ٢ ص ١٤٥ و ج ٥ ص ٤٥٨ أن البندقدار هو حامل الجراوة (كيس البندق) خلف السلطان أو الأمير . المترجم .

المغول الخليفة فى بغداد . وقد ظل الخلفاء العباسيون فى القاهرة حتى الفتح العثمانى ولا سلطة لهم على الاطلاق بالرغم مما حباهم به بيبرس ومن جاء بعده من مظاهر التكريم والتشريف . ومع هذا فإن بيبرس رأى أنه من الحكمة أن يضمن المؤازرة الدينية من أمير المؤمنين .

وكان أول خليفة نصبه طموح النفس ، عالى الهمة ، رغب فى استعادة بغداد وأن يكون له ما كان لأسلافه من سلطان ، فلم يثبطه بيبرس بل تركه يتوجه صوب الجزيرة بقوة غير كافية ، وكما هو منتظر هوجمت تلك القوة الضئيلة فى الطريق وغلبت على أمرها وقتل الخليفة نفسه . وربما كان هذا ما قصد إليه بيبرس ، ثم نصب من العباسيين خليفة آخر اكتفى بالقبوع فى القاهرة ممتعا بالمنصب الزائف الذى خلع عليه . وقد تكون الرغبة فى إظهار الاهتمام بالدين هى التى حفزت السلطان على انفاق الأموال الطائلة على المساجد والاوقاف الخيرية وقد اتخذت التدابير اللازمة للتخفيف عن الفقراء أيام القحط .

ولسوء الحظ هدمت المدرسة البيبرسية التى بناها وسط القاهرة لتفسح المكان لإنشاء شارع رحب زمن الخديو اسماعيل ولا يزال جزء من هذه المدرسة باقياً بشارع المعز . ولكن بقية كبيرة من مسجده الجامع الكبير لا تزال قائمة حيث بناه فى الحى المعروف بالظاهر نسبة إليه . ولقد أفلح فى استعادة الولايات السورية وثبت الحكام المحليين ، أقيالا ونواباً لمصر ولما أبى أمير دمشق الخضوع ، قبض عليه وسجنه .

ولكى يقبض على أعنة الأمور فى مملكته الواسعة . حسّن نظام الحمام الزاجل الذى كان باقياً من عهد الفاطميين ، وانشأ بريداً من الخيل يقطع المسافة بين القاهرة ودمشق فى أربعة أيام . وكان بيبرس شغوفا بلعبة الكرة

واعتاد أن يتنقل بين عواصمه مستعينا بخيل البريد ، وكان يفخر بأنه لعب الكرة فى القاهرة ثم فى دمشق فى أسبوع واحد . وكان عظيم القوة شديد التحمل ماهرا فى السباحة ولقد مر بنا أنه سبح خلف توران شاه الجريح وقضى عليه فى الماء ، ويقول مؤرخو العرب أنه كان قادرا على السباحة وهو مرتد دروعه الحربية ساحبا حملا ثقيلا خلفه . وقد كان فارسا لا يكل ،تظاهر فى أحدى المناسبات فى فلسطين بأنه ملازم خيمته لمرضه ثم رحل إلى القاهرة ليلا ليرى بعينه كيف يحكمها ولده أثناء غيابه ثم رجع خفية بنفس السرعة وتظاهر بأنه شفى من مرضه المزعوم .

ولكى يدفع خطر الأمبراطورية المغولية التى شملت إذ ذاك جميع بلاد العجم والجزيرة تحالف مع قبيلة تترية عظيمة تسمى القبيلة الذهبية وهى منحدر من نفس الأصل المغولى ولكنها حطت رحالها على نهر الفولجا واعتنقت الاسلام ، وكان الصليبيون من جهة أخرى على وئام تام مع مغول فارس الذين ظلوا مسيحيين إسما فاتخذ بيبرس من ذلك ذريعة لمهاجمتهم ، فلم يمض وقت طويل حتى تساقطت القلاع الصليبية فى يده الواحدة تلو الأخرى ، ولم يبق لهم آخر الأمر إلا صور ، وطرابلس ، وعكا وعند استيلائه على أنطاكية سره أن يرسل الى أميرها الفرنجى خطابا مملوءا بالسخرية والتهكم معددا له ما أتاه الجيش المملوكى من أعمال رهيبة ومهنئا إياه بغيابه إذ ذاك .

ومات بيبرس عام ١٢٧٧ م من شربة مسمومة كان أعدها لآخر ،ويقول بعض مؤرخى العرب أن أحد المنجمين تنبأ بوفاة أمير فى ذاك الشهر ، واعتقد بيبرس أن ناصر الدين داود أحد حفدة توران شاه يتآمر على قتله ،فناوله كأسا مسمومة ، ثم عاد فملأها ثانية بغير أن يفطن الى أن فريسته إنما شرب نصفها

فقط وشرب الكأس وهو يجهل أن بها سما وكان بها شراب من لبن مخمر(١) يغرم به المماليك ، ثم مات .

وقد طمع بيبرس فى أن يعادل يوسف صلاح الدين ولكنه كان على الضد من أخلاق ذلك الكردى النبيل . فكانت أخلاقه خليطا من الشجاعة والحكمة والدهاء ، والخير ، والقسوة . وتركت صفاته الملوكية التى لا تنكر أثرا عميقا فى نفوس المصريين ، ولا تزال تروى فى مقاهى القاهرة قصصا كثيرة عن هذا السلطان المملوكى العظيم (٢) .

ومعنى بيبرس فى التركية أمير الفهود وتوجد على نقود بيبرس وكثير من آثاره صورة أسد بغير معرفة أو فهد وهو رنكه الخاص ويندر وجود مثله بين رنوك المماليك وشاراتهم .

ويوجد نموذج من هذا الرنك جدير بالأهتمام فى ضواحى القاهرة بالقرب من قليوب ، فى قنطرة على ترعة أبى المنجا القديمة العهد ، فقد نقش على سور أحد وجهيها صف من هذه الحيوانات ، وهناك أمثلة أخرى فى فلسطين وسورية .

وتولى العرش بعده ابنه الأكبر ولكن لما وجد المماليك أنه عاطل من صفات أبيه ، عزلوه وولوا أخاه مكانه ، وهو صبى فى السابعة ، وجعلوا أحدهم وهو الأمير قلاوون ، أتابكا أو وصيا عليه عام ١٢٧٩ م . وكان قلاوون مثل بيبرس أحد المماليك البحرية للصالح ثم ارتقى الى مرتبة عالية . ولا غرابة فى أنه خطا من الوصاية الى السلطنة عندما استدعى الموقف وجود رجل قوى ، وعلى هذا فقد عزل السلطان الصغير ، ونصب قلاوون بدله فحقق أمل المماليك فيه

---

(١) هو لبن القمز « المترجم »

(٢) تقصد المؤلفة السيرة الظاهرية المشهورة . « المترجم »

بايقاعه الهزيمة بالمغول بقيادة ابغاخان ومنكوتيمور فى عام ١٢٧٩ — ١٢٨١ م ثم تفرّغ بعد ذلك للمدن الصليبية الباقية فدمر طرابلس وأوشك أن يفعل ذلك بعكا حين فاجأه الموت بالغاً من العمر سبعين عاما ، ودفن فى مقبرة جميلة مجاورة للبيمارستان أو المستشفى الذى شيده للفقراء عام ١٢٨٣ م مقلدا بذلك نور الدين الذى شيد بيمارستانا فى دمشق أختبر قلاوون فائدته بنفسه . ويصف المعاصرون بيمارستان قلاوون وصفا يعطى الانسان فكرة عن تقدم علم الطب فى العصور الوسطى ولما كانت مجموعة المبانى قد انشئت على عجل فقد رفض الشيوخ الورعون أن يوافقوا أول الأمر على إقامة شعائر الدين فى المسجد المكون جزءا من الضريح ، وذلك لأسباب عديدة ، فالموقع كان فى الأصل قصرا فاطميا تسكنه أميرة مع ثمانية آلاف من جواريها ، وإمائها ، فأخرجن منها فى شىء من القسوة إذ خرج النسوة جميعهن فجأة وغص بهن الشارع فكن مثل جموع النمل التى خربت مساكنها ، فكانت فضيحة كبرى . وعمدوا إلى السخرة فى العمل فلم يكتفوا باستخدام أسرى الحرب والعبيد والعمال العاديين مختلطين مع بعضهم على خلاف المألوف ، بل كان الحرس يعمدون الى المارة فيجبروهم على أداء نصيبهم من حمل حجر أو اثنين الى البنائين ، وقد أخذت مواد البناء من بناء قديم . ومن العجب أن يقوم فى ذلك العهد اعتراض على هدم المبانى القديمة مع أنه شائع اليوم للأسف الشديد فى مصر ، وتسبب فى ضياع كثير من الآثار الهامة : وأخيرا كان هناك بعض الشك بالنسبة لمصدر النقود التى انفقت ولكن رئيس عمال قلاوون أجاب على هذا الاعتراض الأخير بالقصة المعهودة بأنهم عثروا على كنز كبير أثناء حفر الأساس وقد أورد مؤرخو العرب هذه القصة بهيئة الواثق فيها ، فاذا لاحظنا أنهم شيدوا البناء مكان قصر فاطمى فإن قصة الكنز قد تكون حقيقية ، ولكن هناك قصة مماثلة تتكرر عند ما يشيد أحد الأمراء الشرقيين بناء

لدرجة أن الأنسان لا يتوان عن الشك فيها . وعلى كل حال فإن إباء العلماء ورفضهم زال بعد زمن قليل .

وكان أحد ابناء السلطان ويدعى علاء الدين مفضلا عند أبيه فعمل على تدريبه على شئون الملك أثناء حياته ولكن علاء الدين مات عام ١٢٨٨ م ويقال أن الحزن لموته عجل بنهاية والده . ولم يكن قلاوون ليرغب فى ابنه خليل خلفا له لعلمه تماما بقسوة هذا الشاب ونزوعه الى الرذائل . ومع ذلك فقد نادى به المماليك سلطانا عقب وفاة والده . ولكنه أثار غضبهم عليه بعد بضعة أشهر ، وقد استطاع أن يملك ناصيتهم ويقودهم مدة بسبب شغفهم بالحروب إذ أنه قرر تنفيذا ما اعتزمه والده فى الحال من فتح عكا ، آخر معقل للصليبيين فى سورية وفلسطين . فلما أفلح فى الاستيلاء على هذه المدينة هدمها عن آخرها وقتل أهلها بقسوة لا توصف . وهو الذى أعجب بجمال كنيسة صليبية فى عكا فأمر بنقل بابها المصنوع من الرخام الأبيض على الطراز القوطى فحملوه إلى القاهرة قطعا حيث استعمل فى بناء مسجد من ولى الحكم بعده ولا يزال باقيا يثير اعجاب الزائرين ممن يفقهون العمارة القوطية ، ثم استسلمت المدن الأربع الباقية وانتهت بذلك مملكة الفرنجة فى بيت المقدس بالرغم من أن لقب ملك بيت المقدس ظل يحمله ملوك قبرص من سلالة جاى لوزنيان الذى أعطيت له الجزيرة عام ١٢٠٥ م ، ولما عاد خليل الى القاهرة منتصرا اغتاله أمراء المماليك وأجلسوا على العرش مكانه أخاه الناصر محمد . ويعتبر عصر الناصر محمد الطويل الأمد — وقد قوطع مرتان — هاما جدا فى تاريخ مصر وفى خلاله وصل الفن الأسلامى البديع إلى الأوج . وقد خيل فى أول الأمر كأنما سيعيد التاريخ نفسه عندما عزل الاتابك كتبغا الصبى وأرسله الى حصن الكرك فى سورية واستولى على العرش . ولكن سرعان

ماحل لاشين مكانه عام ١٢٩٦ م وحكم حكما عادلا طيبا ، فاكتسب محبة الشعب ، وقد صرح بأنه على استعداد للتخلى عن العرش لابن قلاوون صاحبه السابق حالما يكبر الأمير ويصبح قادرا على الحكم .

ولاشين هذا هو الذى أضاف الى مسجد ابن طولون القبة فوق الميضأة الموجودة بالصحن ، والمنبر البديع المطعم ، وجدد المأذنة وباطن المحراب ومعظم الزخارف الجصية فى الشبابيك . ويقص المؤرخون العرب بأنه لجأ إلى هذا الجامع القديم وهو خرب مهجور أثناء الأضطرابات التى عقبت مصرع خليل ، فلما تولى العرش رغب فى تجديد البناء الفخم الذى يدين له بنجاته وقد قتل لاشين عام ١٢٩٩ م ، وأعيد الناصر محمد من الكرك وعمره ١٤ عاماً

وبطبيعة الحال كان صغير السن لا يستطيع الحكم بمفرده ، فوجد نفسه تحت السيطرة الكاملة لاثنين من أمراء المماليك لا لواحد فقط ، وكان أحدهما سلار التترى وكان اتابكا وقائدا للجند ، وثانيهما بيبرس الشركسى ويدعى الجاشنكير (المتذوق) نسبة الى عمله فى البلاط ، وتمييزا له عن السلطان العظيم بيبرس البندقدارى ، وكان الرجلان على أشد التنافس يكره كل منهما الآخر من صميم قلبه ، ولكنهما اخفيا شعورهما تحت مظاهر الود والصداقة حتى ظن أنهما لن يختلفا . وقد سيطر كلاهما على السلطان ، والبلاط ، والجيش والمملكة برمتها فاكتنزا الأموال الطائلة وكانا يعاملان السلطان بمظاهر التبجيل والتكريم ، وحرماه فى الوقت نفسه ترف العيش ، بل وضروراته . ويروى أنه أشتهى يوما إوزة مشوية ولكنهما أبيا أن يجيبا طلبه الى هذه المتعة .

وإذ كان ضئيلا ضعيف القوة موضوعا تحت رقابة دائمة أضمر للرجلين نيران بغضاء لم تخمد بعد وفاتهما بسنين وقد حاول قتلهما ، ولكن المؤامرة فشلت ، فاستولى عليه الغضب والضجر ، فتظاهر بالتوجه تلقاء مكة لأداء فريضة

الحج وقصد فى الحقيقة الى الكرك ، حيث الأمن والطمأنينة ومن ثم بعث الى الأمراء بخطاب تنازله عن السلطنة .

وكان أظهر حادث فى فترة حكمه الثانية التى استمرت ثلاثة أعوام ، هو ذلك الهجوم الثانى المريع الذى شنه التتار بقيادة غازان خان فانتصر التتار أول الأمر واكتسحوا سورية بأجمعها وفزع الآف الناس وفروا الى مصر طلبا للنجاة . وفى السنة التالية هزم التتار وانتصر عليهم الجيش المملوكى نصرا حاسما قرب دمشق وكان على رأسه السلطان الصغير ولكنه لم يكن القائد ، وزال الخطر المغولى إلى حين . ويجب علينا أن لا نخلط بين مغول فارس ومغول القفجاق وهم القبيلة الذهبية وقد أصبحت من عهد بيبرس حليفة لسلاطين المماليك وكانت والدة الناصر محمد نفسه أميرة مغولية اسمها أصاون ربما كانت منهم . وقد تزوج هو بعد ذلك بأخرى هى الأميرة طولبية . ووقع حادث آخر أثناء الحكم الثانى للناصر وهو زلزال شديد خرب مصر وهدم بعضا من أجمل وأقدم مساجدها . وقد أقبل أمراء البلاط الأغنياء على انقاذ المبانى ، فأنفقوا مقادير جمة من مالهم الخاص لأصلاح ماتلف . وقد قام كل من سلار وبيبرس باصلاح الابنية الرئيسية فأصلح سلار الجامع الأزهر ، وأعاد بيبرس بناء مآذن جامع الحاكم التى تهدمت أعاليها ، وأصلح بكتمر جامع الصالح طلايع الفاطمى ووضع فيه منبرا بديعا لايزال به إلى الآن .

وعندما وصل خطاب الناصر بالتنازل ، سادت لحظة تردد فيمن يتولى السلطنة من الخصمين . ومع أن عامة الشعب كانت تكره بيبرس الجاشنكير إلا أن العصبة الموالية له فى البلاط كانت أكثر عددا فتولى السلطنة . ولكن حكمه لم يطل فقد كان شخصا عاجزا ، قليل الحنكة ، كرهه المصريون لدرجة أنهم نسبوا اليه سبب انخفاض النيل وما تلاه من قحط .

وبحماقته أثار الناصر فى منفاه إذ كتب إليه خطابا مملوءا بالسباب والشتائم جعل السلطان يقرر العودة بالرغم من تحذير والدته ، شفقة منها . وقد آزره فى ذلك عصبته من آل بيته ، فانحـــازت اليه فى الحال كتائب كبيرة من الجيش ودخل القاهرة باحتفال بالغ .

وقد فر بيبرس الى أسوان حاملا معه أموالا طائلة من بيت المال ،وعددا من كرائم الخيل ، وفريقا من المماليك . ولـكنهم أدركوه فأحضر إلى القاهرة حيث أمر الناصر بخنقه فى حضرته بعد أن أشبعه تعنيفا على إهاناته . وقد دفن فى الضريح الجميل الذى بناه لنفسه فى حى الجمالية ولـكن الناصر أمر بازالة اسمه من الـكتابات المنقوشة على المدخل .

وكانت نهاية سلار أقسى وأعنف إذ قدم خضوعه للناصر . فتظاهر هذا بالعفو عنه وسمح له بأن يعتزل فى قرية الشوبك الحصينة فى سورية وبعد زمن قليل طلب السلطان من سنجر الجاولى صديق سلار الحميم أن يذهب لاحضاره لأمر هام .

وكان الأمير سنجر والاتابك يحبـان بعضها كأنهما أخوين ، واتفقا بينهما أن من كان منهما أطول عمر يأخذ فى رعايته أطفال من يسبقه الى الموت وارتضيا أن يدفنا فى بقعة واحدة ، فكانت خدعة قاسية من الناصر إذ يستخدم سنجر أداة بريئة ضد سلار . وعندما لبى سلار الطلب ألقى به فى السجن حتى هلك جوعا .

ويقال أن السلطان ندم فى آخر لحظة وأرسل إليه بعض الطعام ولـكن بعد فوات الوقت فلم تنقذ حياته . ودفن سنجر صديقه المسكين فى مسجده المسمى بالجاولية ويمتاز بقبتيه التوأمتين . وواضح بالمشـــاهدة أنه أنفق على زخرفة مقبرة سلار أكثر مما أنفق على مقبرته هو .

وقد صار سنجر بعد هذه الحادثة المفجعة حاكما على فلسطين وقد واتاه الحظ أكثر من إخوانه فعاش فى أمان حتى بلغ من الكبر عتيا . وهكذا أصبح ابن قلاوون بعد أن تخلص من مضطهديه وهو فى الخامسة والعشرين سلطانا على مصر لثالث مرة عام ١٣٠٩ م ، وظل كذلك حتى وفاته بعدذلك بثلاث وثلاثين سنة . وعلى العموم كانت مدته فترة للسلام والرخاء فى مصر أقام فيها السلطان كثيراً من المبانى ذات الفائدة ، إلى جانب الأضرحة والمدارس والمساجد وحذا كبار الأمراء حذو السلطان إذ كان معظمهم من ذوى رحمه ، فقدتزوج احد عشر منهم من بنات السلطان ، وقلدوه فى بناء أضرحة فخمة لأنفسهم . وشُجّعت الفنون والصناعات فى زمنه . ومعظم الأدوات النحاسية البديعة الصنع الموجودة فى المتاحف ومجموعات الأفراد هى من عهده ، ووصل فى ذلك الوقت الخط النسخى ، الذى أدخله صلاح الدين حـــدا كبيرا من الرشاقة ، واستعمل على شكل كتابات ونقوش فى أشكال مستطيلة ، أو أشرطه ، أو وريدات تكون زخرفة واضحة لأدوات برونزية ، أو نحاسية لاحصر لها عليها اسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . وإلى عهده يرجع تاريخ أقدم النماذج الفخمة لمشكاوات المساجد المصنوعة من الزجاج المطلى بالمينـاء ، وتوجد منها مجموعة رائعة بدار الآثار العربية وأكثرها وأبدعها مأخوذ من جامع السلطان حسن ، ولكن هناك قليل يرجع إلى عهد أقــدم ، وبين الأخريات واحدة من مسجد سنجر الجاولى صديق سلار . وفى زمنه كانت تنفق مبالغ باذخة على الترف فقد انفقت زوجة الناصر الاثيرة لديه مائة ألف دينار ذهب فى حجها . ولم يكن السلطان يحجم ، إذا أعوزه المال ، عن اتهام أحد الأمراء الأغنياء بتهمة باطلة ليصادر أمواله . ويقال أنه كان يعطى موظفى البلاط الفرص ليغتنوا حتى يضمن لنفسه نصيباً أكبر مثلما تفعل زوجة الفلاح عند تسمين الدجاجة قبل ذبحها . وقد مات الناصر عام ١٣٤١ م وعمره ثمانية وخمسين

عاما ، بعد أن اختار من يخلفه من بين أولاده الثمانية . ولما كان هؤلاء الأمراء الخاملين قد تداولوا الحكم لمدد قصيرة يوليهم أشياعهم والأمراء المختلفون ويعزلونهم كيفما شاءوا، فقد آثرنا ذكر واحد منهم فقط، وهو السلطان حسن . وقد حكم السلطان حسن أولا بمؤازرة أتابك قوى مخلص هو الأمير التمش ، ولكن أحد أخوته عزله وسجنه وحل محله . وفى عام ١٣٥٤ م ، نجحت مؤامرة أخرى فى إنقاذه ، فحكم سبع سنين أخرى ثم عزل بمؤامرة أخرى وسجن وربما قتل ، فان نهايته غير معلومة. وقد بقى اسمه خالداً للأجيال التالية كمنشىء لأحد بدائع البناء فى العالم ، فإن جامع السلطان حسن هو أحد الجواهر الفريدة فى العصور الوسطى التى تحلى جبين القاهرة .

وقد تولى عقب اختفائه عام ١٣٦٠م بعض من سلالة قلاوون من أولاد إخوة السلطان حسن، تتابع بعضهم على العرش إثر الآخر وسط مظاهر مستمرة من الاضطرابات والقتل والعنف . فكان هؤلاء الأمراء المساكين يوضعون على العرش وهم صغار، لكى يحكم بإسمهم الأمراء ذوى المطامع والمآرب ، فإذا مابلغوا طور الرجال قتلوا ، ثم تعاد القصة من جديد مع صبي آخر يمنح اللقب وكان آخر اثنين منهم هما ، على الذى مات عام ١٣٨١م وعمره أحد عشر عاما، ثم تلاه حاجى بن شعبان ، وعمره ست سنوات ، بوصاية برقوق أحد أمراء الشراكسة، الذى عمد بعد سنة إلى طرح مظاهر الولاء الزائف، وعزل السلطان الصغير ثم نفاه واستولى على اللقب والسلطنة معا . فكانت بذلك خاتمة مايسمى أسرة سلاطين المماليك التركمان أو المماليك البحرية .

الفصل الخامس

الأسرة الشركسية

إن اسم الأسرة الشركسية التى كونت الفوج الثانى من سلاطين المماليك فى مصر ، لاينطبق على المعنى تماما . فإنهم لم يكونوا أسرة بالمعنى الصحيح ، إذ لم يكن الملك فيهم وراثيا كما كان فعلا فى أسرة قلاوون .

وكانت جهود كل سلطان لضمان اخلاص المماليك لإبنه غير مجدية فى كل الحالات . وتسميتهم بالشراكسة أكثر وضوحا ، فقد اشترى آخر السلاطين من أسرة قلاوون عدداً من الشبان الاشداء من أطراف بحر قزوين، ليحدوا من قوة المماليك الشديدى الشكيمة الذين كانوا من عنصر تركمانى، ولم ينزل هذا الحرس الجديد فى ثكنات الروضة . بل فى أبراج القلعة ، ومن هنا نشأت تسميتهم بالبرجية (ساكنى الأبراج). وقد أثبتوا أنهم كأسلافهم فى استقلالهم وشدة مراسهم . وفى الواقع إنهم كانوا أقل إخلاصا لسلطانهم المنتخب . وقد لاحظ لين بول أن سبعة عشر من هؤلاء السلاطين حكم كل منهم أقل من سنتين ، ومع ذلك فإن بعضهم ، من ذوى القدرة والكفاية، بقى على العرش أمدا طويلا ، وظلت مصر خلال حكمهم فى مصاف الدول العظمى فى العالم وامتد سلطانها وانتشرت تجارتها فى الشرق الأوسط كله .

وقد خلدوا أسماءهم غالبا لبنائهم لأنفسهم أضرحة رائعة، أظهر فيها معماريوهم ذوقهم السليم ، وأبدع فيها الصناع المحليون أعمالهم البالغة غاية الدقة . ومع أن معظم المبانى والمنشئات قد تمت بالسخرة والإكراه ، إلا أن تفاصيل الزخارف

الأخاذة لايمكن أن يقوم بها إلا فنانين مدفوعين بحب العمل والرغبة فيه .

ولا يعرف عن حياة الشعب فى تلك الأيام إلا النذر القليل، فقد اقتصرت المصادر العربية على سرد أعمال البلاط والعسكر ، وفى ثناياها أحياناً تاريخ حياة أحد العلماء أو الاولياء ، ولكن هناك أسباب عدة تجعلنا نعتقد أن الفقراء كانوا كأمثالهم من أهالى أوروبا فى نهاية العصور الوسطى فى الشقاء والإضطهاد ، إن لم تزيدوا عنهم . فإن طغيان جنود المماليك وعنفهم كان بغير حد، وكانت الأحزاب والشيع تقتتل فى الشوارع وتهاجم أى شخص قد يكون فى طريقها . وكان الجند، إذا جدوا فى البحث عن عدو أو غريم منافس، يهاجمون دور الأهالى الآمنين ، ويعذبون الأماء ليستخلصوا منهن البيانات ، وامتنع النساء عن الذهاب الى الحمامات أو الأفراح أو المآتم خشية خطفهم فى الطريق ، وكان التجار يعمدون إلى غلق حاراتهم وأحيائهم ببوابات قوية من حديد احتياطا للطوارىء .

ولم تكن هناك علاقة قط بين السكان والجيش الذى أضحى مكونا برمته من المماليك ، وقد ظل فى الظاهر على الترتيب الذى ابتدعه له بيبرس الأول ، ولكن النظام العام ساء فى الواقع الى حد كبير . فكان كل عظيم من الأمراء على رأس فريق يشايعه مكون من مماليكه ومعاتيقه، ويصبح هؤلاء من «المماليك السلطانيه » اذا ما تولى أميرهم العرش . وكانت وظائف الجيش العالية وأعمال البلاط تنزع من اتباع السلطان السابق وتوزع بينهم . وكانت وظائف البلاط تشمل الساقى والسلحدار والجاشنكير(١) والأتابك(٢) والأستادار(٣)

١ — المتذوق لطعام السلطان .
٢ — أصلها تركى من « أتا » بمعنى اب و « بك » بمعنى سيد وتطلق على القائد العام للجيش .
٣ — رئيس القصر .

والدوادار (١) والجوكندار (٢) . . . . الخ وكان كل صاحب وظيفة يزين متاعه بشعار خاص أو «رنك» يشبه مايستعمل فى اوروبا (Coat of Arms)، ولكنه لم يكن شعار وراثى مثله . وفى بعض الحالات التى عهد فيها إلى أمير بعينه بعدة وظائف كان رنكه الدائرى يشمل عدة شعارات تمثل هذه الوظائف المختلفة مثل كأس الساقى وصندوق كتابة الدوادار وسيف السلحدار . . . الخ

وكانت رتب الجيش تتدرج تنازلياً من الأتابك أو القائد العام إلى مقدم ألف ومقدم مائة ومقدم اربعين ثم مقدم عشرة . وفى بعض الرتب العالية كان يحق للأمراء القواد أن يحتفظوا بفرقة موسيقية،وعلى ذلك كانوا يلقبون بأمراء طبلخاناه. وكان الجيش، ضباطاً وجنوداً ،مكوناً من المماليك التابعين للدولة . ومع أن هؤلاء المماليك كان جميعهم رقيقاً فقد كانت لهم مرتبات منتظمة — نظرياً على الأقل — وكانت الدولة هى التى تدفع لهم مرتباتهم . أما المماليك السلطانية أو التابعين لأحد الأمراء ، فكانوا يتناولون مرتباتهم من سادتهم حتى تسمح لهم ترقياتهم بحيازة ثروة خاصة بهم وكانوا فى الغالب ينالون حريتهم فى ذلك الوقت عادة . ولم تكن هناك أى غضاضة على الأطلاق من أنهم كانوا رقيقاً ، فقد كان ذلك يعتبر مركزاً يقود إلى أقصى الفلاح . ويظهر أن السلاطين كانوا جد فخورين بأصلهم . وقد ارتفع ثمن قلاوون لجماله وذكائه إلى ألف دينار ، وقد أعلن هذه الحقيقة بأن اتخذ لنفسه لقب الألفى، وكانوا كذلك فخورين بأساتذتهم (٣) الذين كانوا فى حوزتهم، فتلقبوا

(١) حامل الدواة .

(٢) حامل الصولجان الذى يلعب به السلطان لعبة الكرة . (Polo)

(٣) الأستاذ فى الاصطلاح المملوكى هو المالك للمملوك . أما الخشداش فهو الزميل؟ (المترجم)

بأسمائهم ، فبيبرس البندقدارى كان مملوكا لأيدكين البندقدار . وقد عمد آق سنقر وأطونبغا وقوصون وغيرهم ، ممن كانوا مماليكا للناصر محمد إلى إضافة لقب الناصرى لأسمائهم وهكذا . أما الذين امتلكهم عدة أمراء على التوالى فأضافوا كل أسمائهم إليهم ، وكثيراً ما تساعد هذه الأسماء على تتبع تاريخ حياة أحد الأمراء . وإنى أحب أن أشير إلى الغلطة غير المقصودة التى يأتيها بعض المؤرخين ، شفقة بالقارىء ، فيهملون ذكر هذه الأسماء لعدم أهميتها . وكان السلاطين قليلى السيطرة على هذه الأشياع المتألبة ، فكانوا فى خوف دائم من أن يعزلهم أتباع منافسيهم . وقليل ممن هم موضوع هذا الفصل كانوا يمتازون فوق العادة ، بصفات قوية وكذلك بقسوة ووحشية بالغتين . ولا شك أنهم استطاعوا الاحتفاظ طويلا بعرشهم بسبب الرعب الذى نجحوا فى نشره .

وكان أولهم برقوق الذى حكم من عام ١٣٨٢ م حتى عام ١٣٩٩ م ، وأتى بفظائع منكرة، ولكن حق علينا أن نقول أنه خفف كثيراً من عبء الضرائب التى كان الناس يضجون منها. وسيبقى اسمه مقروناً بمسجده الجميل الذى بناه فى القاهرة وضريحه فى الصحراء الذى أتمه له فرج. وكان والده «أنس» فلاحاً قوقازياً جاهلا ، جاء إلى مصر قبل أن يصبح ولده سلطاناً، فاحتفى الأمير السرى بمقدم الشيخ الخشن ، ومع أنه كان لا يفقه لفظاً عربياً واحداً فقد وافق على اعتناق الإسلام ديناً ثم تقلد منصباً رفيعاً . ولما توفى دفنه ابنه — وقد أصبح سلطاناً — فى ضريح بجوار المكان الذى اختاره لنفسه .

ثم عاد الخطر المغولى إلى الظهور مرة أخرى بقيادة فاتح جديد مسلم متعصب من أصل تركمانى هو تيمورلنك ، ومعنى (لنك) بالتركية الأعرج ، ولقد صار تيمور كذلك إثر جرح أصابه فى معركة، ويسميه الغربيون

(Tamerlane). وقد استطاع برقوق ، ومن بعده ابنه فرج ، صيانة مصر ضد تيمور ، ولكن التترى القدام انتزع منهم أملاكهم فى سورية . وقد مات تيمورلنك قبل أن يجدد محاولاته ضد مصر . ثم استأنف المماليك نزاعهم الداخلى، فهزم بعض الثوار السلطان فرج وقبض عليه فى دمشق ، وأجاز الخليفة وأكابر الدولة اعدامه لحياته الفاجرة .

وقد كان سكيراً داعراً قتل بيده عدة أشخاص منهم امرأة كان قد تزوجها ثم طلقها . وتلت ذلك فترة حاولوا خلالها جمع السلطة الدينية والمدنية فى شخص الخليفة المستعين بالله . ثم تولى السلطنة الأمير شيخ المحمودى قاهر فرج وتلقب « بالمؤيد بالله » . وكان رجلا متعلماً ماكراً نال السلطنة بفضل مؤامراته المنكرة،ولكنه أثبت أنه حاكم قوى حكيم، وقد استعاد ابنه ابراهيم معظم إمارات سورية التى كان قد استولى عليها تيمور أو أقيال التركمان المتمردين .

وعند رجوعه مظفراً إلى القاهرة قابله الشعب بحفاوة بالغة لدرجة أنها أثارت حسد والده . ويقال أن طبيب السلطان أعطاه جرعة سم فأماته ، ودفن فى أسفل القبة العظيمة التى أعدها والده لنفسه بجوار المسجد البديع الذى شيده . وقد حدث أن حُبس شيخ المحمودى أثناء تمرده ضد فرج فى سجن يكوّن جزءاً من السور الفاطمى قرب باب زويله وقاسى العذاب فيه كثيراً من جراء الجرذان ، فلما أصبح سلطاناً أمر بالسجن فهدم وشيد محله مسجداً بنى مأذنتيه على برجى باب زويله ، فأصبح لهما منظراً رائعاً لاينسى بسهولة .

وبعد وفاة المؤيد تعاقب على العرش ثلاثة سلاطين فى بضعة أشهر حتى جاء برسباى، وهوأمير قوى البأس قبض على زمام الملك وظل مسيطراً عليه

إلى أن مات بعد ذلك بست عشرة سنة وقد اختار لنفسه لقب «الأشرف». ويمثل عصره ذروة العظمة التي بلغتها مصر في عهد المماليك . وقد استطاع جيشه وأسطوله الإضطلاع بإخضاع قبرص وكانت في ذلك الوقت تحت حكم آل لوزنيان الفرنسيين .

وقد أحضر جانوس لوزنيان مصفداً بالأغلال أمام برسباي ، وعم الفرح أرجاء القاهرة لإذلال الفرنجة والنصارى في شخصه . وقد تفاوض أحد تجار البندقية فيما بعد في شأن فديته ، فأنزله برسباي منزلة الضيف المكرم وأركبه جواداً عربياً كريماً وخرج للصيد بالبازي في جماعة باهرة من فرسان المماليك. وقد رجع لحكم قبرص نائباً عن سلطان مصر ، واستمر هو ومن خلفه يحكمون الجزيرة أقيالا لمصر يدفعون لها الجزية عيناً ، وقد امتلأ برسباي بهذا الفتح غروراً فأرسل إلى ملوك أوروبا كتباً طنانة يدعوهم فيها إلى الإسلام وإعلان خضوعهم له . وقد امتاز أيضاً هذا العاهل المملوكي بفهمه العميق للتجارة ، فمَنَّ تجارة الهند وشجعها وربح ربحاً عظيما من الاحتكار وكانت قيمة النقود الذهبية في عهده أعلا منها في عهد خلفائه . ومع هذا فيلوح أن الناس كانوا يرزحون تحت عبء ضرائب باهظة وتناقص عددهم مرتين بتفشي وباء الطاعون بينهم تفشياً ذريعاً. وتثير أنباء الوباء الأول منها الرعب والفزع. فإن المؤرخين يؤكدون أنه أهلك من سكان القاهرة عشرين ألف نفس في يوم وليلة ، وشحت الأخشاب لعمل التوابيت وقلت الأقمشة لتكفين الموتى . فاجتمع العلماء في الجامع الأزهر يصلون طالبين الخلاص ، ولكن المصادر تقول أن الوباء ازداد عنفاً عن ذي قبل .

وقد مات برسباي عام ١٤٣٨ م. بمرض أثر في عقله زمناً . وأن القسوة الجنونية التي أظهرها ربما كانت كامنة فيه من قبل . وكانت أفعاله الأخيرة

لا يماثلها إلا أفعال الخليفة الحاكم بأمر الله المجنون. ويكفى مثلا إعدام أطباء البلاط الذين أخفقوا فى علاجه فأمر بنشر كل منهم الى نصفين بالرغم من معارضة الأمراء . ومع أنه أجبر المماليك على اداء يمين الولاء لإبنه جمال الدين يوسف إلا أنهم سريعاً ماعزلوه وولّوا مكانه واحداً منهم هو جقمق . وقد كان على غير العادة دمث الأخلاق رقيقاً فلم يرض بإيذاء الصبى ، وأنزله منزلا طيباً فى القلعة. ولكن جمالى يوسف فرّ من سجنه الذهبى، وربما كان ذلك بدافع روح المغامرة أو استجابة النصيحة خاطئة. فتنكر فى زى صبى مطبخ يحمل على رأسه صينية مأكولات ويتبع أحد معاونيه الذى تنكر فى زى طباخ جعل يسبه ويرفسه ويهينه بشكل أشبه بالحقيقة حتى وصلا المدينة بغير أن يكشف أمرهما أحد ولكن الأمير الصغير لم يكن يعلم مايصنع بعد ذلك، فقبض عليه سريعاً وأرسله السلطان وهو آسف إلى سجن حصين فى الإسكندرية .

أما بقية حكم جقمق على طولها (١٤٣٨—١٤٥٣م) ، فليس فيها ما يهم لكى نورده فى هذه اللمحة القصيرة ، وكذلك الحال مع «أينال» الذى بنى خانقاه وضريحا لاتزال بقايا هامة منهما قائمة بقرب ضريح قرقماس أمير كبير وبضعة آخرين كان حكمهم من القصر لدرجة أنه لاضرورة لذكر أسمائهم . ولكن الحال يختلف مع السلطان الشركسى الخامس عشر ، وهو قايتباى العظيم الذى استمر حكمه من عام ١٤٦٨ الى ١٤٩٦ م . وقد شيّد كثيراً من الآثار المدهشة حتى يستحق أن يطلق إسمه على طراز المبانى السائد فى ذاك العهد . وقد ولد فى أحدى بلاد القفجاق على نهر الفولجا واختطفه نخاس فى صباه وأحضره إلى القاهرة وباعه . وهناك قصة بأنه رأى فى المنام أن سيكون له ملك مصر ، وبينما كان يقص رؤياه على صبى آخر من لداته ، هجم عليهما جماعة من النخاسين، وهما يرعيان الغنم، وقبضا عليهما بسهولة ، وصار

مملوكا للأشرف برسباى ثم للظاهر جقمق الذى أعتقه ثم مضى يرقى درجات الحكومة المملوكية ، وأضحى سلطاناً عام ١٤٦٨ م وهو فى سن الخامسة والخمسين، مكان المملوك الشركسى الظاهر أبى سعيد تيمور بغا الذى رغب عن العرش وتنازل عن السلطنة . وكان صديقاً له ، فعامله قايتباى بكل تبجيل وسمح له بأن يعيش معتزلا فى دمياط .

وكانت الست سنوات الأولى من حكم قايتباى يسودها الأمن والسلام، فاستطاع أن يشبع ميله إلى العمارة . وإلى هذا العهد يرجع تاريخ ضريحه البديع المشيد فى الصحراء. غير بعيد عن ضريح برسباى وضريح برقوق، وهذا الأثر يعتبر أكمل مثال لطراز قايتباى . وإن رشاقة مأذنته وبدائع الزخارف المحفورة فى أحجار القبة وتناسب أبعاده، كل ذلك يثير الإعجاب حقاً وقد أردف هذه العمارات الشائقة بعمارات أخرى عديدة، منها ثلاثة مساجد وخانات وأسبلة وقصوراً نجا بعضها وسلم من أعمال التدمير التى يأتيها مخططو المدينة ، جهلا منهم وقصورا . وفوق ذلك أمر قايتباى بالتجديد والإضافة فى فى مبانى الجامع الأزهر وقنطرة الظاهر (ابو المنجا) والقلعة ... الخ، خلاف المبانى الأثرية فى القدس ومكة وسوريه. وحلت محل الزخارف الجصية الشائعة فى عهد الأسرة السابقة الأحجار المزخرفة بحفر واطىء ، فكان لها تأثيراً أقوى . وقد رغب الأمراء الكبار فى بلاط قايتباى أن يقلدوه ،فخلفوا لنا مجموعة من الآثار البديعة ، نجد من اللازم أن نذكر منها مساجد قجماس الإسحاقى، وأبى بكر مزهر، وأزبك اليوسفى وأزبك بن ططخ الذى هدمت أزبكيته لتفسح مكاناً لدار الأوبرا الحالية .

ومن المحقق أنه لكى يوفر المال اللازم للمبانى ، عمد إلى جمعه بأساليب متنوعة، فأثقل عاتق الأهالى بالضرائب، وابتز الأموال من أمرائه أنفسهم

بالتعذيب والمصادرة . وقد كان رجلا شجاعا قويا ، ومن الجلى أنه لم يعرف الخوف،أبداً،فقد كانت له السيطرة التامة على المماليك الذين أخافوا سلفه، حتى أنه عندما أظهر ميله إلى الإعتزال، بعد توليه بست سنوات، منعه من ذلك إجماع الأمراء على الاحتجاج .

وحقيقة الأمر أن خطراً خارجياً قام يتهدد مصر ، فبينما كان قايتباى يخشى عجزه عن مجابهته ، كان المماليك يشعرون بأنه الوحيد القادر على إدارة دفة الحكم خلال هذه الآونة العصيبة .

فقد عمـــد محمد الثانى الذى فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ، الى شن الغارة على أوزون حسن زعيم إحدى القبائل التركمانية الخاضعة لمصر إسماً ، فتوقع سلطان المماليك بنظره البعيد أن الفاتح العثمانى سيعقب ذلك بغزو سورية .

وفى سنة ١٤٧٧ م اصطحب قايتباى ثلة من الجند ورحل بسرعة وتفقد الحـدود السورية ، وأمر بتجـديد الحصون، وشـدد عزم رعاياه السوريين بهداياه المقرونة بتهديداته . وقد زال خطر الفتح عن سوريه إلى حين بوفاة محمد الثانى وانشـغال ولديه بالتنازع على الحـكم . ولسـوء الحظ ارتكب قايتباى خطأ سياسياً بتأييده لأضعف الاثنين، وهو الأمير « جم » الذى قضى عليه البابا السىء الشهرة (١) اسكندر السادس بواسطة السم ، وفاز بايزيد ، الذى لم ينس فعلة قايتباى ، فشبت بينهما حرب متقطعة دامت ١١ سنة اشتهر فيها إسم الأمير أزبك قائد قايتباى ، وانتهت بمعاهدة مع الإمبراطورية العثمانيـة .

---

(١) هو رودريجو بورجيا عميد أسرة بورجيا الايطالية ووالد سيزار ولوكريزيا المشهورين مثله . المترجم

وانتهز قايتباى الفرصة لتحقيق مطالبه بالجزية السنوية التى كانت تأخذها مصر من جزيرة قبرص والتى توقف دفعها لتغير الحالة السياسية فى الجزيرة. فإن « جيمس » الدعى آخر سلالة لوزنيان ترك المملكة لأرملته « كاترينا كورنارو » أحدى شريفات البندقية . وافلحت جمهورية البندقية فى أخذ الجزيرة منها. وقد أعلن سلطان مصر أنه لن يتداخل فى الأمر إذا مااستمرت الجزية تدفع له بانتظام. وابتهجت البندقية لتحقيق السلام على هذا الأساس .

ولم يطل زمن المعاهدة المعقودة مع الإمبراطورية العثمانية أكثر من خمسة عشر عاماً ، أو مايقرب منها، عاش قايتباى الخمس سنين الأولى منها، وقد أصبح الآن شيخاً كبيراً ومن الراجح أنه لم يعد قادراً على بسط سيطرته على أمراء المماليك كما كان قبلا فى تلكم الأيام التى كان يتنازل فيها لإخماد العصيان بيديه. وبدأ مماليكه فى التعارك على العرش قبل وفاته فعلا . وقد خلفه أربعة سلاطين فى خمس سنين .

وأمتاز تولى خامسهم، وهوقانصوه الغورى، بحادثة قد كانت تصبح ذات نتائج هامة فى مستقبل مصر لو لم يتم فتحها سريعاً فيما بعد . ففى هذه المناسبة ضجر سكان مصر من الثورات الدموية التى كان ينزلها بالبلد الأمراء المتقلبون الثائرون وأصروا على أن يؤخذ رأيهم،فساهم العلماء فى اختيار السلطان (١). وكان الغورى الذى وقع اختيارهم عليه متقدماً فى السن . وكان فى الأصل مملوكا لقايتباى ويتصف بالشجاعة والبساطة وبقى حتى وقع عليه الإختيار غير

(١) حدث أثناء الحكم التركى فيما بعد أن استطاع الشعب أن يفرض طلبه بإبقاء ولاة أحبهم أو اختارهم. ففى سنة ١٦٤٠م أصروا على بقاء مصطفى باشا ، وفى سنة ١٨٠٥ م اختاروا محمد على باشا الكبير.

المترجم

طموح أوطماع ، ولم تكن له رغبة فى الحكم ، ولكنه رضى على شرط أنه إذا ما أخفق فى إرضاء منتخبيه ، فإنه يترك ليعتزل بسلام فى مكان قصى هادىء. ومع ذلك فمن المرجح ان الأهالى لم يطل فرحهم بانتخابه إذ أثقلهم بالضرائب، بل وأنقص قيمة النقد ليحصل على المال الكافى ، ولكنه أنفقه بحكمة تامة فى بناء القناطر وحفر الآبار وتجديد قناطر المياه والتحصينات . ولقد شيد مسجداً جميلا وضريحاً لم يقدر له أن يدفن فيه . ولقد أنفق على الأساطيل الأموال الكثيرة ، ولكنها ذهبت سدى، فحطم البرتقاليون أسطولا فى البحر الأحمر، واستولى فرسان القديس جون على أسطول آخر فى البحر المتوسط، وكان الغورى قد أعاره بغير روية إلى أخى السلطان سليم الثائر، مرتكباً نفس الخطأ الذى أتاه قايتباى . وقد كان ذلك سبباً وجيهاً ليتخذه سليم ذريعة لمهاجمة سورية وأرسل فى نفس الوقت بالتهديد والوعيد إلى القاهرة . فجمع السلطان الشيخ أكبر جمع استطاعه وأسرع إلى سورية وقابل الغزاة فى سهل منبسط قرب حلب إسمه مرج دابق . ومع أن جنود المماليك اشتهروا بالبسالة، إلا أنه كان ينقصهم حسن النظام والتعاون . ومن الطبيعى أن يعمهم الفزع حينما واجهوا المدافع التركية لأول مرة . وكانت الخيانة هى العامل الأساسى فى هزيمة الجيش المصرى، فقد كان الأمير خير بك حاكم حلب وقائد الجناح الأيسر للجيش متصلا سراً بالأتراك ، وفى اللحظة الحرجة انهزم بجنوده ، فحذا بقية الجيش حذو جنوده الفارين وحينما حاول الغورى إيقاف تيارهم داسته الأقدام ومات ولم يعثر على جثته أبداً ، وسقطت المدن السورية بعد ذلك فى يد سليم بغير مقاومة. ولكى يظهر احتقاره لقلعة حلب أمر أن تفتح أبوابها لجندى أعرج يحمل هراوة من الخشب ويتبعه الجيش العثمانى على بعد كبير . وقد استطاع عدد من الأمراء الفارين الوصول إلى القاهرة التى كانت فى عهد

الدوادار العظيم طومانباى يقول بعض المؤرخين أنه كان من أقارب الغورى ومن مماليكه المعتقين ؛ ولا يجب أن نخلط بين هذا الأمير السيء الحظ وبين السلطان السابق للغورى والمسمى طومانباى كذلك . وتشير الدلائل على أنه كان من أقدر أبناء جنسه وأحسنهم فقد أحسن الحكم نائباً عن السلطان وكبح جماح فظائع المماليك وأظهر ميلا عظيما إلى العدالة حتى أحبه الناس رغم إرهاقهم بالضرائب . ولما عاد الأمراء منهزمين من معركة سورية المشئومة وشرعوا فى انتخاب خلف للغورى انتخبوا طومانباى بالإجماع سلطاناً ولكنه رفض العرش فرغبوه فى قبوله لأجل الصالح العام ، فقام على رأس جيش جمع على عجل وتوجه للقاء الأتراك الغزاة الذين وصلوا إذ ذاك (يناير سنة ١٥١٧م) إلى العريش وتقدموا نحو القاهرة وقد هزم المماليك رغم شجاعة سلطانهم فلم يكونوا يحسنون استعمال مدافعهم التى اشتراها طومانباى بأثمان فاحشة من البنادقة فلم تكن لها فائدة ازاء مدفعية الترك العظيمة المدربة . وقد إنهزم طومانباى مع بعض الأتباع المخلصين عبر النيل ودخل سليم القاهرة وعقبت ذلك حوادث مريعة من أعمال العنف والقتل والنهب والسلب والإعتداء فى حين جمع طومانباى بعض الحلفاء من البدو واستأنف الهجوم ثانية وبعد عدة مناوشات هزم فى معركة قرب الأهرام (مارس سنة ١٥١٧م) واختفى لدى البدو ولكن بعضاً منهم وشوا به وأسلموه إلى السلطان العثمانى . وقد عامله سليم فى مبدأ الأمر بكل تبجيل وكان يبعث فى طلبه كل يوم ويحادثه طويلا واستخبره عن عدة أشياء تتعلق بالحالة المحلية والأدارة . وبعد أن عرف منه كل ما أراد معرفته أمر به فشنق على باب زويله بعد أسبوع أو نحو ذلك . ويقول بعض المؤرخين أن سليما كاد يعفو عن طومانباى متأثراً بمظهره النبيل وسلوكه العالى لولا أن الخائن خير بك نصحه بقتله قائلا أنه إذا عاش فان العصابات سوف تستمر على مؤازرته ضد العثمانيين .

وكوفىء خير بك على خيانته بأن صار أول وال عثمانى على القاهرة التى أصبحت فقط عاصمة لولاية مصر التابعة لتركيا . وقد قفل السلطان سليم راجعاً إلى القسطنطينية حاملا أسلاباً لاتقدر قيمتها من أوانى الذهب والفضة والحلى وكل ثمين وكذا الجمال والخيل والبغال والغلمان والجوارى . ونزع من الآثار بدائع الرخام والأخشاب ، حتى رجال الفنون والصناعات أسرهم وحملهم إلى اسطنبول ليجملوا العاصمة التركية بفنهم وبراعتهم . وأخذ سليم معه أيضاً الخليفة العباسى الذى انضم إلى الأتراك من أول الأمر . وإلى عهد قريب كان المعتقد أن الأتراك بعد أن وضعوه تحت سلطانهم اتهموه باساءة إدارة الأموال وسجنوه ولم يخلوا سبيله إلا بعد أن وقع وثيقة بتنازله لهم عن منصبه ولقبه وهذه القصة تفسر كيف أن الخلافة ظلت سبعة قرون فى سلالة عم الرسول عليه السلام ثم ورثها سلاطين آل عثمان حتى نزعت عنهم أخيراً . ولكن هذه القصة ينقضونها الآن بما يظهر أنه مصدر وثيق .

أما سكان مصر فقد ساءت حالهم عما كانت قبل الفتح العثمانى فقد كان ولاة الأتراك الذين خلفوا خير بك الخائن ، لا هم لهم إلا اكتناز الأموال وأصبحت السخرة عامة وأخذت محاصيل الأرض الخصبة من المزارعين لترسل إلى القسطنطينية وأدخل جنود الانكشارية الرعب فى قلوب الأهلين وأساءوا معاملتهم كما فعل المماليك من قبل . وقد ذبحوا المماليك بالآلاف وتعقبوهم فى كل مكان واضطهدوهم فتركوا القاهرة واستقروا بالأقاليم وتزوجوا من مصريات وهو عمل لم يكن أسلافهم يأتونه وبمضى الزمن اندمجوا فى الأهالى وقد أثرى كثير منهم وملكوا الأراضى وبمضى الزمان استعادوا سطوتهم وسلطانهم السابقين . ولما غزا نابليون مصر كان الجيش الذى أخفق فى التغلب عليه مكونا من المماليك .

الفصل السادس

القاهرة من عهد سليم حتى عهد بونابرت (١٥١٧ - ١٧٩٨ م)

لم يفكر المستشرقون الذين درسوا الآثار الإسلامية بالقاهرة أن يمدّوا دراستهم لما بعد الفتح التركي لظنهم أن لا أهمية لذلك. ويظن بعضهم أن لاشيء من الآثار التي شيّدها العثمانيون يستحق العناية. ويقول البعض الآخر أنّ هذا الطراز إن هو إلاّ صنو طراز الأستانة وعلى ذلك فهو ليس بتابع لسلسلة الآثار التي شيدتها الأسر السالفة في القاهرة. وكلتا النظريتين تقوم على أساس خاطيء. حقيقة أن التأثير التركي غيّر شكل الجوامع إلى حد كبير. ولكننا نرى أيضاً أن التأثيرات الخارجية أتت بتغيرات كثيرة في مظهر الآثار في القاهرة منذ ابن طولون حتى الغوري، وأن تطور الطراز المعماري في مصر هو أحد الأسباب التي تجعل تاريخها شائقاً بنوع خاص.

وزيادة على ذلك فإن التغير لم يكن فجائياً كما يؤكدون، فإن عدة من الجوامع مثل جامع خير بك وأمير آخور وبيبرس الخياط . . . الخ تعتبر مثالا لفترة الإنتقال من الطراز المملوكي إلى الطراز التركي.

وبالرغم من أنهم اقتبسوا الطراز العثماني الملهم في أساسه من كنيسة أيا صوفيا التي تمتاز بجمال قبتها الرائعة. فقد والى العمال المصريون المهرة ممارسة مايحبون من صناعة فسيفساء الرخام والخشب المطعم، ولا يزال باقياً مسجد أو إثنان وبعض الأسبلة وبقايا بعض القصور دليلا على أن الفتح الأجنبي

لم يطغ على رشاقة الزخارف المملوكية وجمالها . وأين يوجد مايفوق جامع البرديني الرشيق المشيّد عام ١٧٩٠ م في جمال زخارفه الداخلية من فسيفساء الصدف وعظم السلحفاة والمينا الزرقاء والخضراء وسقفه المزخرف على غرار طراز قايتباى وشبابيكه الملونة الزجاج ومشربياته !؟ أو منزل شيخ الصاغة، جمال الدين الذهبي ولحسن الحظ قد صانته الحكومة مما حاق بكثير من القصور البديعة التي تركت للخراب أو هدمت قصداً ، ومرة أخرى أين من ينكر الرشاقة والإبداع في أبنية السبيل والكتّاب وهي منشآت لطيفة شيّدت للبر والخير وتحتوى في الدور الأرضي على نافورة عامة للجمهور حولها شباك من حديد وفي الدور الأول شرفة ذات عقود بديعة تضم كتّاباً لأطفال الفقراء . وكثيراً ماوجد الرسامون الباحثون عن المناظر الخلابة بغيتهم في سبيل وكتاب خسرو باشا المشيّد في القرن السادس عشر أمام مسجد قلاوون وسبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا الواقع على قيد خطوات منه ويرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر .

ومما لاشك فيه أن مصر لم يكن ينقصها الجمال في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر وإنما أصبح تاريخ مشيّدى آثارها غير مشوق ولا هام فإننا نجد أن سلاطين المماليك الذين إن كانوا غلاظ القلوب ، بل وسفّاكي دماء، إلا أنهم كانوا أبطالا مغاوير يحوطهم بلاط فخم من الأمراء، يحبون مثلهم الفن والأدب ، قد جاء بدلا منهم حكام للأقاليم قد ارتقوا إلى مرتبة الباشوية يعزلون ويقالون حسب إرادة سلطان اسطنبول . وكانوا في شغل دائم بالسعي في حيازة الأموال لأنفسهم بطرق غير مشروعة . ولم تستطع مصر أن تستعيد مكانتها في التاريخ بين الأمم إلا في عهد ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الكبير الجد الأكبر لجلالة مليكها المعظم ،

وتاريخ هذه الأسرة الكريمة حديث جداً لا يمكن إدراجه هنا فى سلسلة الدراسة الأثرية المتواضعة .

وقليل من الآثار التى شيدت بعد الفتح التركى يستدعى ذكريات حافلة . وهى تكون مجموعة كافية لإثبات أن عهدها كان غير عقيم من الناحية المعمارية . أما من الناحية التاريخية فإن دراستها مفككة يجب علينا ، لكى نربط بين حوادثها المكونة لهذا الفصل،أن نسرد سلسلة طويلة من الحوادث الجافة المملة فى حدها .

كان أول وال على مصر عقب الفتح هو الأمير خير بك الذى سببت خيانته هزيمة الجيش المملوكى فى معركة مرج دابق عام ١٥١٦ م ، وكان أبوه من أمراء المماليك وكان ذلك نادراً بين مماليك الشراكسة الذين كانوا يرقوا إلى المناصب العالية بعد شرائهم وهم صغار وكان له عدة أخوة صار أحدهم -وكان بعيد الهمة- حاكما لسورية فى عهد الغورى . وفى عهد السلطان محمد بن قايتباى كان خير بك سفيراً لمصر فى اسطنبول ومن الجائز أنه انحاز إلى جانب الترك فى ذلك الوقت وفى عام ١٥٠٤ م صار نائباً على حلب وظل كذلك حتى ساهم فى نصرة السلطان سليم على الغورى .

وجزاء لخيانته كافأه السلطان العثمانى بولاية القاهرة التى انحدرت إلى مرتبة عاصمة إقليم فقط . ويظهر أن قصره فى باب الوزير (١) وضريحه ذى القبة الجميلة بقرب مسجد آق سنقر كان قد شيدهما قبل الفتح ، ومن الواضح أن المسجد المجاور قد شيده بعد أن أصبح والياً وعلى ذلك فهو من أقدم آثار العهد العثمانى . وعند ما أصبح خير بك والياً رأى من الواجب أن يتزوج

(١) اتضح قريباً أنه قصر من العهد التركى بناه الين آق سنة ١٥٠٢ م . كما ورد فى كراسة لجنة حفظ الآثار العربية (سنة ١٩٣٣-١٩٣٥) (المترجم)

زيجة ملائمة فاقترن بالأميرة « مصرباى » أرملة أحد الســـلاطين السابقين للغورى (وقد توفى هذا السلطان عام ١٤٩٩ م) وأسكنها القصر الذى نزل فيه بالقلعــة . وقد احتفل بالزواج فى رمضان مخالفاً بذلك العادة المألوفة فأثار سخط الشعب المتدين وخاصة لذهاب عدة سيدات لحضور حفل القران وهن راكبات حميراً . ويظهر أنه لم يكن زواجاً موفقاً فإن المؤرخ الإســلامى إبن إياس يروى أنه فى عام ١٥١٩ — أى بعد ذلك بسنتين — كثر اللغط فى القاهرة لأن الوالى ضرب زوجه حتى أشرفت على الهلاك .

وتنسب إليه الـكثير من الفظائع فإن المؤرخ نفسه يروى أن قتل أكثر من عشرة آلاف نفس وكان يجد لذة كبيرة فى رؤية المعذبين ولهذا فـكثيراً ما كان يأمر بتعذيب عبيده فى حضرته ، فـكرهه الناس وعمهم سرور خفى حينما أصيب عام ١٥٢١ م بمرض الحمرة . وقبل وفاته ببضعــة أيام شمله الفزع من يوم الحساب . فحاول أن ينال رضى ربه ، فأمر بتوزيع صــدقات كثيرة وأعتق عدداً كبيراً من الرقيق والأسرى ومع ذلك فقد شاعت قصة بأن روحه ظلت فى قبره تستغيث وتطلب الرحمة من الله بعد وفاته بوقت طويل .

كان السلطان سليم قد مات قبل ذلك بعامين وخلفه ابنه سليمان القانونى ومن المعلوم أنه فى فترة حكمه عقدت الدول الأوروبية معه تلك السلسلة من المعاهدات الخاصة المعروفة باسم الامتيازات الأجنبية . وقد كان هــذا العاهل العظيم من أهم شخصيات عهده فقد عاصر اليزابث وشارل الخامس وفرنسوا الأول والبابا ليو العاشر وسلطان المغول « أكبر » وشملت امبراطوريتـــه ما يعرف الآن بالشرق الأوسط ، فلم تكن مصر بالنسبة إليه إلا إقليما لايستطيع أن يخصها بالـكثير من وقته وتفـكيره ، ومع ذلك فيظهر أنه أكمل النظام الإدارى الذى بدأه والده وترك للوالى مهمة تطبيقه . وخلال الحكم الطويل

الأمد لهذا السلطان العظيم تولى حكم مصر أربعة عشر من هؤلاء الباشوات ولم يكن تاريخهم إلا سلسلة من الدسائس والفضائح الحكومية وقد أمر أحدهم واسمه سليمان كاسم السلطان ببناء المسجد الصغير البديع القائم فى الجانب الشمالى الشرقى داخل القلعة ويطلق عليه إسم « سيدى ساريه » بعد أن اختلط إسمه باسم أحد الأولياء .

وهذا الأثر المعاصر لأجمل مساجد اسطنبول تتجلى فيه الرشاقة والتناسب وتخطيطه عثمانى بحت ، أما تفاصيله ففيها دليل مهارة الصناعة المصرية .

وجاء آخر إسمه محمود باشا وكان فظاً غليظ القلب يضارع خير بك فى قسوته وجبروته وقد بنى الجامع الأبلق القائم بين مسجد الرفاعى والقلعة . وقد أغتيل نتيجة مؤامرة لم يعرف مدبّروها فقطعوا رأس اثنين من الفلاحين الأبرياء .

حدث هذا عام ١٥٦٧ م أى بعد وفاة سليمان القانونى بسنة واحدة وعلى ذلك فإن وريثه هو الذى أرسل سنان باشا القائد المظفر حاكم حلب ليكون خلفاً لمحمود القاسى وقد شيّد مسجداً فى السنانية ببولاق يستحق الإهتمام الكثير فهو مشيد على طراز عثمانى بالغ الجمال . ولما كان هذا الوالى يحمل نفس اسم أعظم المعماريين فى اسطنبول فى عهد السلطان سليمان فإنه من السهل الخلط بينهما مع أنهما لم يكونا فى عصر واحد. وقد شيّد خلفه مسيح باشا مسجداً عند عرب آل يسار ولكنه لا يهمنا بقدر ما يهمنا مسجد آخر ثم بعد ذلك بحوالى خمسة عشر عاماً وهو يلفت النظر بعمارته وتاريخه الخاص ذلك هو مسجد الملكة صفية فى الحى المعروف بإسم الداودية . وهو قائم على مرتفع يوصل إليه بسلالم نصف دائرية وفى مقدمته فناء تحيط به العقود ،مثل معظم المساجد العثمانية وتتجلى فى المصلىّ بعض خصائص فنية هامة وتفاصيل

طريفة منها منبر محفور فى الرخام يضارع أمثاله من بدائع الفن فى اسطنبول.

وهذا المسجد كبعض مساجد القاهرة يطلق عليه إسم إمرأة هى الملكة صفية زوجة السلطان مراد الثالث ، مع أنها لم تشيّده بالرغم من أنها جعلت الناس يعتقدون ذلك (١) وقصة الملكة صفية شائقة جداً فهى تنتمى إلى أسرة بافو من أسرات البندقيــة وكان والدها حاكما لجزيرة كورفو . وفى أحـــد الأيام عندما كانت فى الرابعة عشرة من عمرها كانت فى قارب مع بعض نساء أخريات ذاهبات لزيارة الحاكم فهاجمهن قرصان المسلمين وأسرهن . وقدلفت نظرهم جمالها الباهر فاحتفظوا بها لحريم السلطان . وكان هـذا السلطان مع طيبة قلبه ضعيفاً وميالا للهو فشغف بحبها واستطاعت هى بمهارتها أن تبقى على شغفه بها حتى مماته . وقد كان للنساء قوة وسطوة فى البلاط العثمانى فى عهد سليم الثانى والد مراد الثالث وقبل أن يرى مراد ابنة البندقية الحسناء كان واقعاً تحت السيطرة التامة لأمه وهى يهودية تدعى « نوربانو » ولأختـه « أسما سلطان » التى تزوجت صقلىّ باشا . وقد لاحظت المرأتان بعين السخط نمو سلطان القادمة الجديدة وتزايده ، فحاولتا التغلب عليها بكافة الطرق ، فجلبتا ما استطاعتا من الجوارى الحسناوات ليلهينه عن ابنة البندقيــة وقد أفلحتا فى تحويله عنها مرتين لمدة قصيرة الأولى بواسطة إحدى (الكلفوات) وكانت تسمى « راضية » وقد كان لها عليه بعض السلطان إذ كانت تتنبأ له بالمستقبل حينما كان ولياً للعهد ؛ والمرة الثانية بواسطة راقصــة مجرية ذات براعة وذكاء ، ولـكنه سرعان ما كان يرجع إلى صفيــة وقد إزداد بها هياماً عن ذى قبل . فظنت نور أنما يرجع تأثيرها إلى عوامل السحر وأمرت بإعدام عــدد من جوارى كنتها . ولـكن بلا جدوى وانتهى الأمر بموتها حسرة وكمدا . ومع

١) أرجع إلى كتاب Some Cairo Mosques بقلم المؤلفة

ذلك فعندما حضرتها الوفاة تصالحت مع صفية وأوصتها بالإستفادة من خدمات معتوقتها « جانفدا » قهرمانة القصر القوية البأس فاقتنصت صفية فرصة تمكنها من ترك الأمور الداخلية للقصر فى يدى « جانفدا » ووقفت وقتها كله لشئون الدولة وقد أصبح لها سلطان عظيم على زوجها لدرجة أنه لم يكن يفعل شيئاً إلا بموافقتها وقد استخدمت هى هذا النفوذ فى صالح جمهورية البندقية وطنها الأول . وتدل الحادثة التالية على مدى نفوذ صفية وكذلك على ميولها فقد حدث عام ١٥٨٥ م أن طلب « جرمينى » السفير الفرنسى مساعدة الأسطول التركى ضد فيليب الثانى وكتبت كاترين المديشية خطاباً بيدها فى هذا الشأن إلى السلطانة التى اطلعت سفير البندقية عليه .

وقد كان للسلطان مراد رغم كل عيوبه حسنة واحدة هى غرامه بالعمارة فشيد فى تركيا عدة جوامع وحذت الملكة حذوه وبنت المساجد ومنها مسجد اسكدار الباقى حتى الآن . وعند وفاة مراد سمحت صفية — لا بل أمرت — بقتل أخوة ولدها محمد وعددهم تسعة عشر طبقاً للتقليد العثمانى القاسى القاضى بإزالة كل من يخشى منه المنازعة على العرش عند إرتقاء كل سلطان جديد . وقد بقيت طول حكم محمد الثالث ذات سيطرة وسلطان يعزوها بعض المؤرخين لتشجيعها المخذى لابنها فى فجوره وقد كان أكثر ضعفاً من أبيه وامتاز حكمه بعدة أخطاء ربما كانت بطلتنا السبب فيها .

وبعد وفاة محمد الثالث عام ١٦٠٣ م تولى بعده ابنه أحمد وسنه أربعة عشر عاماً فقط ولكنه أظهر حزماً لم يكن متوقعاً فقد رفض أن يوافق على التقليد المتبع بإعدام إخوة السلطان واحتفظ إلى جواره بأخيه مصطفى . أما جدته فقد ألزمها البقاء فى القصر القديم مع جواريها وأغواتها وأتباعها وحرم عليها التدخل فى السياسة إطلاقا وأمر بإعدام قهرمانة القصر المخلصة لها .

وقد عاشت صفية فى عزلتها سنوات عـديدة ويلوح أنها فى هـذه الفترة أمرت بنقش الـكتابة التى تنسب إليها إقامة مسـجدها بالقاهرة . ولكن الحجـة التى نشرها على باشا مبـارك تدل على أن أحد الأغوات التابعين للملـكة شيّد هذا المسجد حوالى عام ١٥٩٤ م ولـكنها أمرت عبداً آخر من عبيدها بوضع يدها عليه معلنة أن مؤسسه نفسه من مماليكها ولا يحق له أن يحوز أى ممتلـكات واتخـذت الاجراءات القانونيـة اللازمة حسب القواعد الشرعية ، ولـكنها لا تبرر وجهة نظر صفية على الاطلاق .

وفى خلال حكم محمد الثالث كثر تمرّد الجنـود بمصر ، ثم إزدادت هـذه الاضطرابات زمن أحمد الأول وتعاقب الباشـوات على حـكم مصر واشـتهر بعضهم بالظلم والبعض الآخر ببالغ الضعف وارتـكب الجنود الفظائع وأصبح الشعب يرزح تحت نير الاضطهاد . وفى ١٦١٩ م تفشى بين الناس وباءأهلك منهم خلقاً كثيراً .

وفى عام ١٦٢٤ م اصطلح الجند والأهالى على رفض الاعتراف بعلى باشا والياً علىمصر وأصرّوا على بقاء مصطفى باشا الذى كان قد ولى مصر قبـل ذلك بثلاثة أشهر . ومع ذلك فلم يكن مصطفىباشا ليستحق هذا كله إذ حدث وباء جديد نتج عنه هلاك عدد من ذوى الاملاك فاستباح لنفسـه وراثتهم وبذلك حصل على ثروة طائلة ولما شكاه الورثة الشرعيـون إلى السـلطان استدعى الوالى المستهتر إلى القسطنطينية حيث أعدم .

وقد كانت هذه أول محاولة تقام ضد سلطة الوالى المفوضة له من لدن السلطان . ومنذ ذلك الحين نلاحظ أن سلطة البـكوات ، وهو لقب أمراء المماليك ، تزداد قوة لدرجة أنها صارت تعادل سلطة الوالى . وكان كبيرهؤلاء

الأمراء يدعى شيخ البلد وأضحى فى نهاية القرن السابع عشر شخصاً ذا أهمية خاصة .

ومنذ ذلك الحين صار التاريخ أكثر اضطراباً ، يتكون من مؤامرات ومعارك دامية بين الأحزاب المتباينة . وفى بداية القرن الثامن عشر كان اثنان من رؤساء الأحزاب يتقاسمان اهتمام الشعب المسكين ، إبتدعا طريقة اللقيا على موعد فى ساحة خارج المدينة ومعهما أتباعهما وهناك يقتتلان فاذا أرخى الليل سدوله قفلوا إلى المدينة فى هدوء وآووا إلى منازلهم ليعيدوا الكرة من جديد فى اليوم التالى كما لو كانوا يتبارون فى لعبة الكرة (١) .

وقد أصبحت سلطة الباشا من الضآلة لدرجة أنه صار عاجزاً تماماً عن كبح جماح عصابات الجند وأصبح شيخ البلد على رأس جيش قوى من مماليكه ، وقد ظلت الاسرة المملوكية المتنافسة تبتاع المماليك وهم أحداث وتدربهم على القتال وكان معظمهم من الشراكسة ، وقد صار بعضهم ضباطاً فيما بعد فى الجيش التركى ومثال ذلك إسماعيل رضوان وإبراهيم وهما من بكوات المماليك. ينتمى أحدهم إلى أسرة قصد أوغلو والثانى إلى أسرة « الجلفى » وقد اشتهر كلاهما فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، وكان كلاهما قائداً لفرقة فأحدهما كان قائداً للإنكشارية والآخر للعزب (٢) وحق له أن يلقب بالكتخدا أو الكخيا بمعنى الوكيل أو النائب ، وقد اتحد هذان

(١) لا يزال شائعاً إلى اليوم بين عامة القاهرة التواعد على اللقاء خارج القاهرة ، بل أن الصبية ينقسمون فى لعبهم إلى حزبين ويخرجون إلى «الجبل» للتقاذف بالأحجار ولا شك أن ذلك من مخلفات ذاك العصر . « المترجم »

(٢) لفظة الانكشارية خطأ ولكنه مشهور وصحة الاسم بالتركية « ينى شرى » أى العسكر الجديد . أما العزب فهى فرقة غير نظامية ؛ ويعرف باب العزب بالقلعة بهذا الاسم لأن رضوان بك رئيس العزب هو الذى جدده . « المترجم »

الرجلان ضد عثمان بك شيخ البلد وقضيا عليه مع أنه كان رجلا نبيل الأخلاق عظيم السلطان وكان أول من تجرأ من أمراء المماليك بعد الفتح ودعا الباشا العثمانى إلى مأدبة فى داره وقد كان لنزاهتــه وشدّته مع المجرمين ذكرى خالدة بين أفراد الشعب .

وقد استطاع ابراهيم كتخدا الفوز بمنصب شيخ البــلد وكان فى حوزته أكثر من ألفى مملوك قدر لأحــدهم أن يخلف ذكرى فى التاريخ خالدة وهو على بك المعروف بالــكبير فقد رقى المناصب بسرعة ثم جلب بدوره جيشاً من مقاتلة المماليك . وبعد سلسلة من المغامرات والحوادث يضيق المقام عن شرحها هنا أوشك أن ينجــح تماماً فى تحرير مصر من النــير العثمانى وكان يرمى إلى إعادة الامبراطورية المصرية السورية وتنصيب نفسه سلطاناً للمماليك . فبعــد أن تعين شيخاً للبلد استطاع أن يحتــكر لنفسه جلب المماليك فلا يستطيع أحد سواه أن يسيطر على هؤلاء الجند الشجعان وعلاوة على ذلك استطاع أن يحصل لأتباعه على جميع رتب الضباط فى جيش مصر فلا يترك الطريق خاليــاً أمام الضباط الذين يرقيهم السلطان . وسعى فى ترقية ثمانية عشر ممن يركن إلى إخلاصهم من شبان الشركس والــكرج إلى رتبة البــكوية. وسريعاً ما أصبح أحدهم وهو سليمان بك كتخــدا الانــكشارية واشــتهر منهم ابراهيم ومراد بمقاومتهما لغزوة نابليون بعد ذلك بسنين قليلة . وأحمد الملقب « بالجزار » لسفــكه الدماء وقد صار فيما بعد والياً على عكا حيث استطاع القيام بدور هام بمعاونة الانجلــيز . ثم محمد الملقب بأبى الذهب وكان أثيراً عنــد على بك وقد فضله على الآخرين وزوجه من ابنته ولــكنه تسبب فى هلاك سيده ، ومع أن أتباع على بك المخلصين كثيراً ما حذروه ضد محمد بك أبى الذهب إلا أنه أبى أن يشك فيه ولم تتفتح عيناه على الحقيقة المرة إلا عند ما رأى صهره يســير

ضده على رأس جيش عثمانى . وبعد مقاومة باسلة أسر المملوك العظيم وحمل إلى القاهرة حيث مات بعد بضعة أيام متأثراً بجراحه التى أشاع الناس أنها سممت بواسطة من كان قد أنزله من نفسه منزلة الإبن وفلذة الكبد .

وقد إستحوذ أبو الذهب على ثروة طائلة وانتهز الفرصة لحظوته لدى اسطنبول وفاز بمنصب شيخ البلد ومعه سلطة لا حد لها . وقد شيّد لنفسه مسجداً يعتبر الآن من بدائع العمارة العثمانية فى القاهرة وهو يشبه إلى حد كبير مسجد سنان باشا فى حى بولاق ، ويلوح أن فكرته مأخوذة عنه ولكنه يختلف عنه فى المأذنة فهى دخيلة تماثل مآذن الغورى والأزهر وأميراخور بجوار القلعة ، فى حين أن المأذنة العثمانية تمثل برجاً رشيقاً مدبباً كالقلم الرصاص وأحسن مثال حديث لها مأذنة مسجد سيّدنا الحسين .

ويجب أن لا نغفل عن ذكر عبد الرحمن كتخدا وهو أحد معاصرى عثمان بك وكان متولياً شئون الأوقاف وقضى حياته فى هدوء ولكن غرامه بالعمارة كان معادلا لغرام قايتباى . ولا تثريب عليه إذا كان الفن قد تدهور إزدهاره بعد عهد المماليك ولم تكن المساجد العديدة التى شيدها ، وأحسنها مسجد المطهر بالصاغة وزاويته بشارع الغربلين ، لتقارن بمساجد القرن الخامس عشر ، وقد اقتبس بعض تفاصيلها من العمارة المملوكية لكن فيها بعض التفاصيل التركية البحتة . وقد اشتهر عبد الرحمن أيضاً بما أدخله من زيادات فى الجامع الأزهر ومن بينها ضريحه الخاص وجزء من المدخل وخمسين عموداً من رواق القبلة ومنبر ومحراب جديدين . وقد كان حكيما فى احترامه المحراب القديم .

وقد اتهم عبد الرحمن بأنه حاز ثروة بطرق مشروعة وغير مشروعة ولكنه عرف كيف ينفقها حقاً فى إقامة الأبنية الدينية وفى وجوه البر

والإحسان فكان يوزع الملابس كل شتاء على العمى — وكانوا إذ ذاك أكثر عدداً — وعلى المؤذنين لكى تحميهم من البرد عند الآذان . وقد بني والده عثمان كتخدا (الكخيا) مسجداً لا يزال قائماً فى جنوب ميدان الأوبرا وقد أصلح أخيراً . وهو الذى أوقف بقايا قصر قرب ضريح قلاوون باقمنه قاعة كبيرة يرجع عهدها إلى القرن الرابع عشر ونسبت خطأً إلى بيبرس بينما منشؤها هو محب الدين الموقع وقد أصلحتها لجنة حفظ الآثار منذ زمن طويل

وتعتبر هذه القاعة الرائعة مثالا بديعاً لفن عمارة المنازل فى هذه البلاد فى العصور الوسطى وهو طراز ظل باقياً فى العهد التركى ، ومع ذلك فلم يبق من هذه القصور البديعة إلا القليل منها قصر جمال الدين الذهبى الذى ظل كاملا ، وهو التاجر الثرى الذى مر بنا ذكره ، وهناك قصور أخرى ، مثل قصر رضوان بك بالخيامية تدل بقاياها القليلة على أنها كانت أجدر وأولى بالصيانة والحفظ

ويلوح أن القصر الفخم المعروف باسم المسافرخانة كان موجوداً منذقرن قبل أن ينال شهرته فى التاريخ الحديث بميلاد الخديو اسماعيل فيه ، وقد كان على شفا الدمار منذ سنين قليلة فأنقذه جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول ، براً بوالده وحفظاً للفن وإلى جلالته يرجع الفضل فى إنقاذ كثير من الآثار فى الوقت المناسب فقد حال دون دمار واجهة بيت الحسيمى بأكلها فى حى الجمالية وهو يعتبر أجمل منزل فى القاهرة وكان هذا المنزل فى حوزة أحد شيوخ الشراكسة الأجلاء الذى لاحظ الجمال الشرقى فى منزله فعنى بعشربيات شبابيكه وزاد فى عددها ووضع على الأرفف الظريفة التى تزين الحيطان مجموعة من الآنية الصينية الزرقاء ، ومما يزيد فى كمال هذا المنزل حديقته المصرية البحتة الساحرة ، وزيادة على ذلك فإن إحدى قاعاته مزينة بالقاشانى

البديع ويظهر أن بعضه من مصدر إيطالى ولكن الجزء الأكبر منه من صناعة الأناضول

وقد سبق وجود عدد من هذا القاشانى بمصر ولكنه اختفى شيئاً فشيئا بسرقات اللصوص أو بيع أصحابه له وهم يجهلونه . ويمتاز جامع آق سنقر بوجود عدد كبير منها فيه ، وقد شيد هذا المسجد عام ١٣٤٦ م أحد الأمراء الذين تزوجوا إحدى بنات محمد بن قلاوون وجدده ابراهيم أغا مستحفظان أحد ضباط الانكشارية عام ١٦٥٣ م ورغب فى زخرفته على طريقة جوامع اسطنبول . وهذا القاشانى المجلوب من الأناضول غير متناسق ولا متناسب وقد ثبتته أيدى عمال ينقصهم المران فوضعت بعض قطع الحافة فى وضع رأسى ولم تظهر القطع الجميلة فى تمام روعتها . ولكن اللون الأزرق — السائد فيها يروق العين ويثير البهجة لدى السياح الأمريكيين . وقد وصف الروائى روبرت هيتشنز هذا المسجد باسم المسجد الأزرق . وهو معروف الآن بهذا الاسم بين جماعة التراجمة .

وتوجد فى الجامع المسمى أثر النبى المشيد على مكان جميل على حافة النيل جنوبى مصر القديمة بعض اللوحات الخزفية البديعة وضعها هناك الحكام الأتراك عندما جددوا الجامع فى القرن السابع عشر .

ولم ينتج العهد التركى الكثير من الفنون الفرعية وليس ذلك بغريب ، إذ لم يوجد البلاط الذى يشجع أرباب الصناعة . ومع كلّ فهناك بعض الآثار الفضية وقليل من الأبواب المزخرفة بالفضة من ذلك العهد محفوظة فى دار الآثار العربية ويوجد مثال بديع لها لا يزال فى مكانه هو باب ضريح الإمام الشافعى ومن المرجح أن على بك الكبير هو الذى وضعه هناك عند ما جدد القبة الجميلة للضريح . وهناك بعض القطع المطرزة على منوال تطرز به

الكسوة للكعبة فى هذه الأيام .

وإلى القرن التاسع عشر ترجع الثريات المدلاة من سقوف المساجد والساعات القديمة التى تعطى المسجد جواً غريباً عنه . وتدل على التأثير القبيح للطرز التى سادت فرنسا زمن لوى فيليب وانجلتره زمن الملكة فكتوريا .

وقد أهدى إلى الحكومة المصرية مؤخراً أحد خبراء الفن ومخاصى الحب لمصر وهو الميجور جاير أندرسون (١) مجموعة فاخرة من طرف الآثار الاسلامية وبعض القطع الفنية الأخرى وهذه المجموعة معروضة فى منزل عربى بديع يرجع إلى القرن السابع عشر ويسمى « بيت الكريدلية » وهو قائم بقرب أحد مداخل جامع ابن طولون . وكان قد أعير لصاحب هذه المجموعة وقد وصل الآن بين بيت الكريدلية ومنزل مجاور بممر عند الطابق الثانى فأصبحا يكونان متحفاً قيما يدعى متحف جاير أندرسون. ويحتوى على مكتبة ثمينة وحجرة للقراءة حيث يمكن مطالعة ما كتب عن مصر فى سهولة ويسر.

---

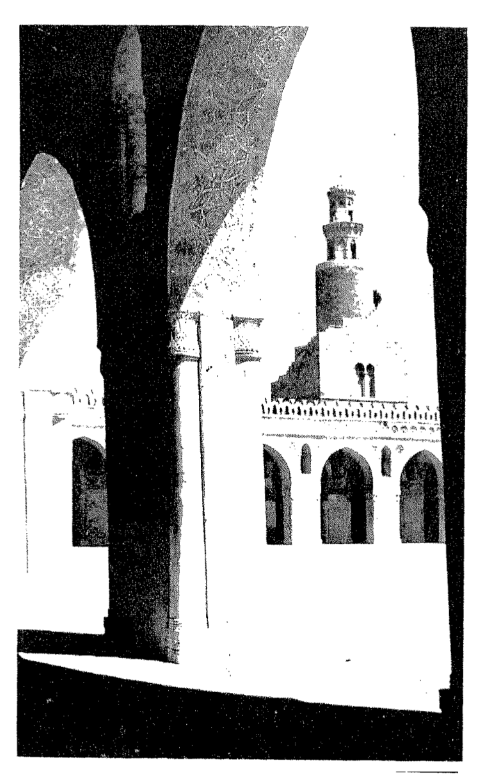
(١) كان ضابطاً بالقسم الطبى بالجيش المصرى وأحيل إلى المعاش برتبة أميرالاى وقد منحه جلالة الملك فاروق رتبة اللواء (الشرفية) تقديراً لشعوره نحو مصر وقد توفى فى صيف عام ١٩٤٥ م « المترجم »

كشف بالاعلام

غ

ف

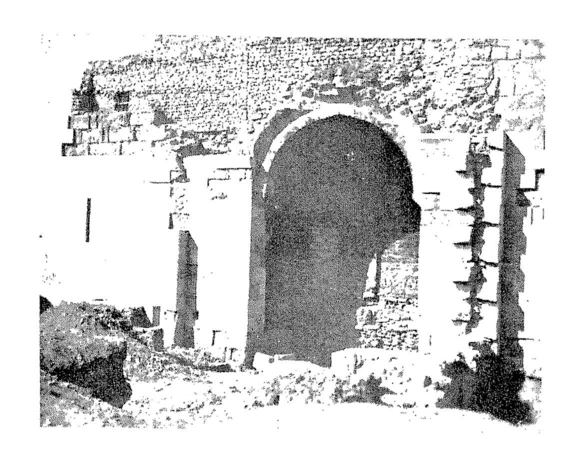
طبعت بمطبعة ره شندلر
فى مايو سنة ١٩٤٧
بالقاهرة



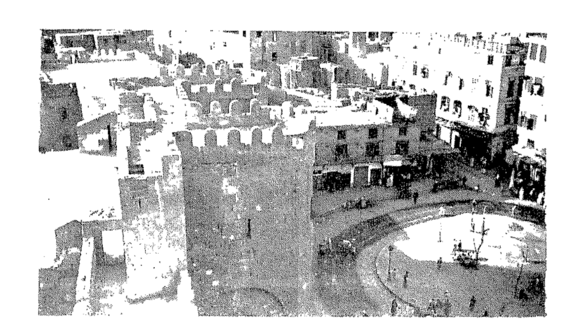
منارة جامع أحمد بن طولون

تصوير ايمان

لوحة نمرة ١

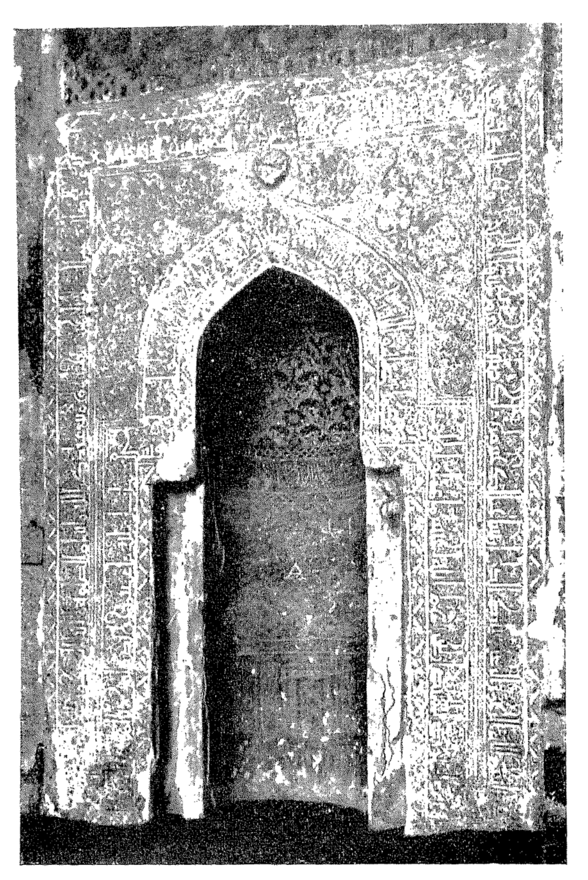


باب القرافه　　　　تصوير ح. عبد الوهاب



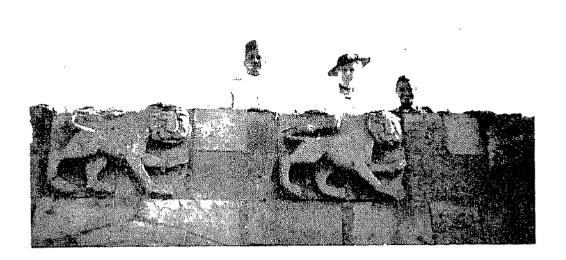
باب الفتوح　　　　تصوير بذت

لوحة نمرة ٢

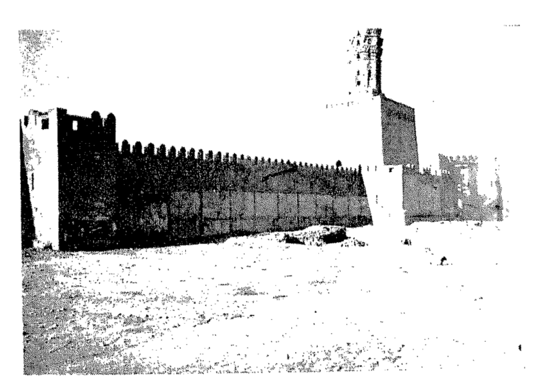


محراب مسجد الجيوشي　　　　تصوير كرزول

لوحة نمرة ٣

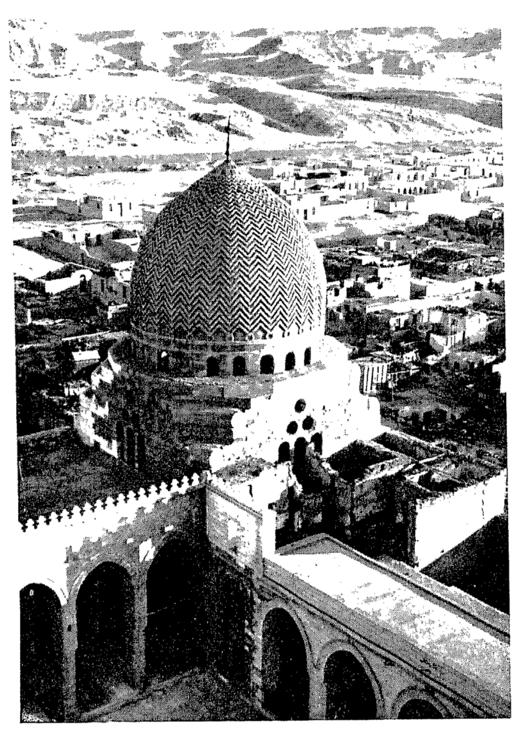


قنطرة أبي المنجا — تصوير ن. وليز



سور البلد بين باب النصر وباب الفتوح — تصوير كرزول

لوحة نمرة ٤

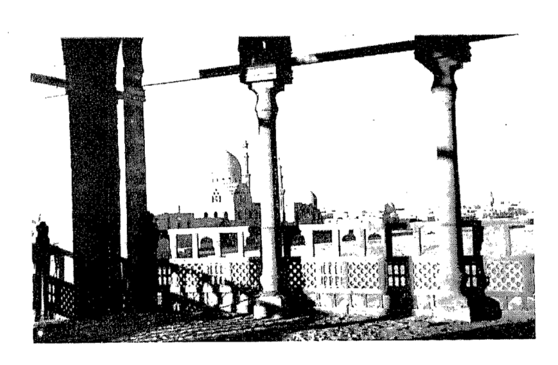


قبة خانقاه فرج بن برقوق　　　　　تصوير بل

لوحة نمرة ٥

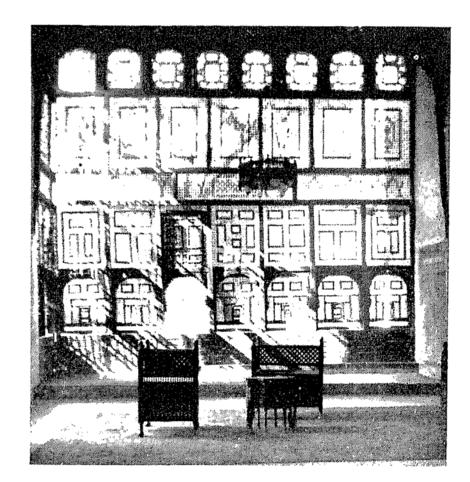


قبة مسجد قايتباى بالصحراء الشرقية — تصوير ناسن

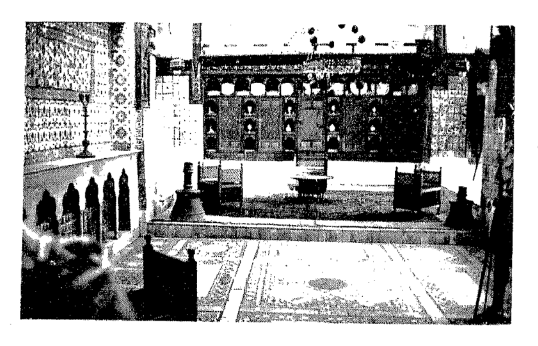


منظر مسجد قرقماس مأخوذ من كتاب فرج بن برقوق — تصوير ايمان

لوحة نمرة ٦

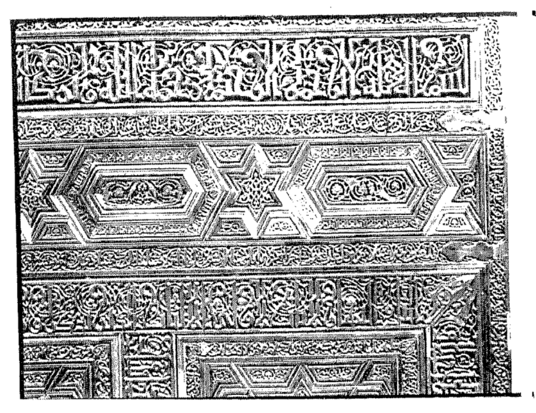


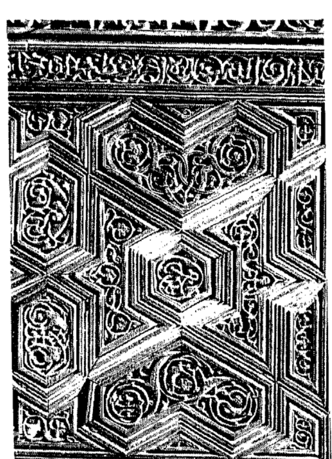
مشربية القاعة البحرية الشرقية فى منزل السحيمى　　　　تصوير وارن



القاعة البحرية فى منزل السحيمى　　　　تصوير وارن

لوحة نمرة ٧





تفاصيل من تابوت
المشهد الحسينى

تصوير ح. عبد الوهاب

لوحة نمرة ٨



الناشر ر . شندلو
بالقاهرة

